فقـــه

الأخلاق الإسلامية

رؤية تربوية في تهذيب السلوك الإنساني

الدكتور

محمد خالد السميري

دكتوراة التربية الإسلامية

1447 هـ – 2026 م

فقه الأخلاق الإسلامية

رؤيـة تربويـة في تهذيـب السلوك الإنساني

الدكتور

محمد خالد السميري

دكتوراه التربية الإسلامية

2026م – 1447 هـ

فقه الأخلاق الإسلامية

حقوق النشر وإعادة النشر

يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو تداوله أو مشاركته، ورقيًا أو إلكترونيًا، شريطة عدم إجراء أي تعديل أو تحريف على محتواه، وذكر اسم المؤلف كاملًا عند إعادة النشر أو الاقتباس، مع حفظ جميع حقوق الطبع والتأليف للمؤلف.

ولا يجوز بيع الكتاب أو استغلاله تجاريًا أو إعادة طبعه لأغراض ربحية إلا بإذن خطي مسبق من المؤلف.

حقوق الطبع والتأليف محفوظة للمؤلف الدكتور محمد خالد السميري.

الفهرس

تمهيد 10

المبحث الأول: مفهوم الأخلاق 15

أولا: مفهوم الخلق لغة 15

ثانيا: الخلق اصطلاحا: 17

المبحث الثاني: مركزية الأخلاق ومصدريتها في الإسلام 20

المطلب الأول: مركزية الأخلاق في الإسلام 20

المطلب الثاني: مصدرية الأخلاق في الإسلام 23

أولا: القرآن الكريم 23

ثانيا: السنة النبوية 29

ثالثا: الاستحسان والعرف: 32

المبحث الثالث: اكتساب الأخلاق 34

المطلب الأول: الأخلاق الفطرية 36

المطلب الثاني: الأخلاق المكتسبة 46

أولا: تأثير البيئة الأسرية 47

ثانيا: تأثير البيئة التعليمية 52
ثالثا: تأثير البيئة الاجتماعية 56
المبحث الخامس: كيفية تشكُّل الأخلاق ونشوئها 61
أولا: معادلة تشكُّل الأخلاق (السلوك) 61
ثانيا: القوى الغريزية المؤثرة في السلوك 64
المبحث السادس: أسباب انحراف الأخلاق 89
أولا: الجهل 89
ثانيا: انحراف العقيدة 90
رابعا: انحراف العقل واتباع الهوى 91
خامسا: انحراف الفطرة 92
سادسا: سيطرة القوة الشهوية على الإنسان 94
سابعا: ضعف سيطرة الدافع الإيماني 95
ثامنا: سيطرة القوة الغضبية على الإنسان 95
تاسعا: انحراف القلب وعدم تمييزه بين الحق والباطل 96
عاشرا: انعدام التوجيه والإرشاد: 97

الحادي عشر: رفاق السوء: 98

الثاني عشر: الجليس السوء 98

المبحث السادس: تعديل الأخلاق 101

أولا: التعزيز 105

ثانيا: العقاب 109

ثالثا: الموعظة والعبرة 111

رابعا: قلب الدوافع 113

خامسا: ضبط النفس 117

سادسا: القدوة الحسنة 119

سابعا: الأحكام التكليفية الخمسة 121

المبحث السابع: الأخلاق الكبرى وما يتفرع عنها 128

المطلب الأول: رؤية ابن قيم الجوزية 128

الشكل1: الأخلاق والفضائل الكبرى عند ابن القيم 131

الشكل2: الرذائل الكبرى عند ابن القيم 134

جدول3: *الأخلاق الكبرى وما يتفرع عنها لدى ابن القيم* 135

الشكل3: أخلاق على طرفيها رذيلتان عند ابن القيم 139

المطلب الثاني: رؤية الغزالي للأخلاق 140

جدول4: *تصـــنيف الأخلاق الكبرى وما يتولد منها من أخلاق فرعية لدى الغزالي* 149

الشكل4: *فضائل على طرفيها رذيلتان عند الغزالي* 151

المطلب الثالث: رؤية الأصفهاني للأخلاق 152

جدول5: *تصنيف الأخلاق الكبرى عند الأصفهاني* 154

المطلب الرابع: رؤية ابن حزم للأخلاق 155

أولا: أخلاق مفردة: 157

ثانيا: أخلاق مركبة تركيبا ثنائيا: 157

ثالثا: أخلاق مركبة تركيبا ثلاثيا: 158

رابعا: أخلاق متسلسلة: 158

المراجع: 162

تمهيد

الحمد لله الذي جعل الأخلاق زينة الإيمان، وأساس صلاح الإنسان، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ الذي بعثه الله معلّمًا ومربّيًا، فكان أسمى الناس خُلقًا، وأعظمهم أثرًا في تهذيب النفوس وبناء المجتمعات.

أما بعد،

فإن الأخلاق الإسلامية ليست مجرد توجيهات نظرية أو نصائح عابرة، بل هي منهج حياة متكامل، ينظم علاقة الإنسان بربه، وبنفسه، وبالناس من حوله. وهي تمثل جوهر الرسالة التربوية في الإسلام، وأساس الاستقامة في السلوك، والاستقرار في النفس، والنجاح في الحياة.

وفي زمن كثرت فيه التحديات الفكرية والاجتماعية، وتنوّعت المؤثرات الإعلامية والثقافية، أصبح كثير من الناس يبحثون عن القيم التي تعينهم على الثبات، وعن المبادئ التي تمنح حياتهم معنى وطمأنينة، ومن هنا تبرز الحاجة إلى تقديم الأخلاق الإسلامية بأسلوب واضح، قريب من الواقع، يربط بين النص الشرعي والتطبيق العملي في حياة المسلم اليومية.

يهدف هذا الكتاب إلى التعريف بفقه الأخلاق الإسلامية، وبيان مكانتها في الدين، وأثرها في بناء الشخصية المتوازنة، من خلال عرض

مفاهيمها الأساسية، ونماذجها التطبيقية، بأسلوب يجمع بين البساطة والعمق، وبين الأصالة والمعاصرة.

كما يسعى إلى مساعدة القارئ على تحويل القيم إلى سلوك، والمعرفة إلى ممارسة؛ ليكون الخلق الكريم جزءًا من حياته اليومية في بيته، وعمله، وعلاقاته، ومواقفه المختلفة؛ لكي يفهم طبيعته ونفسه ويسوسها ويوجهها نحو الطريق الأمثل والأقوم والنجاة في الدنيا والآخرة.

وقد حرصت في هذا العمل على الابتعاد عن التعقيد الاصطلاحي، والإكثار من الأدلة القرآنية والنبوية؛ ليكون الكتاب بمثابة أنموذجًا يعين الإنسان على فهم الأخلاق التي حث عليها الوحي الإلهي، مما يعينه على تهذيب النفس، وتقويم السلوك، وبناء شخصية مسلمة واعية ومسؤولة.

وتحتل الأخلاق الإسلامية مركزية كبرى في حياة المسلم، لما لها من أهمية في تعامل المسلمين فيما بينهم، والأخلاق تؤطر تفاعلية الفرد مع ما حوله، وهو عملية دينامية تفاعلية تكشف عن مكنونات الفرد؛ لأن السلوك الذي يسلكه الإنسان ناشئ عن دافع داخلي، وحين يتم إطلاق الخلق على الفعل فإن ذلك يعني السلوك الإنساني في أدبيات علم النفس الحديث، **وحسبنا في كتابنا هذا أن نشير إليه باللفظة الإسلامية ألا وهي الخلق**، انطلاقا

د. محمد خالد السميري

من ألفاظ الوحي الإلهي، ولما رأيت أهمية هذا الموضـوع عمدت إلى كتابة هذا السفر في مجال الأخلاق وكيفية فقه الأخلاق التي تصـدر عن الإنسـان؛ إذ يشـكل هذا الكتاب منهجا تأصـيليا في الحديث عن الأخلاق الإسـلامية، اعتمدت فيه البعد عن التعقيد والفلسـفة التي لا طائل منها، حتى يسـتطيع فهمه المتخصـص وغير المتخصـص ويسـتفيد منه ويطبقه في حياته، فـالأخلاق جاءت على شـقين: الأول: أخلاق مع الله تعـالى وهي تنظيم العلاقة مع الله تعالى من خلال عبادته وتوحيده، وهذا لم يتم بسـطه في هذا الكتاب ولعل الله أن ييسـر لنا الكتابة في ذات الموضـوع، وأما الثاني: فهو أخلاق الإنسـان مع الإنسـان، وأخلاق الإنسـان مع نفسـه، وهو المعني بالحديث.

ونسـأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب نافعًا لكل قارئ، سـببًا في ترسـيخ القيم، وإحياء معاني الأخلاق، والمسـاهمة في بناء مجتمع يقوم على الأخلاق الإسلامية الرفيعة.

والله الموفق إلى سواء السبيل

الدكتور محمد خالد السميري

د. محمد خالد السميري



المبحث الأول

مفهوم الأخلاق

المبحث الأول: مفهوم الأخلاق

حين الحديث عن الأخلاق لا بد من تعريف الأخلاق تعريفا لغويا وفق وضع العرب، ثم تعريفه اصطلاحيا كما اصطلح عليه أهل العلم في وضع حدود التعريفات لديهم، ويأتي ذلك وفق الآتي:

أولا: مفهوم الخلق لغة

"الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، والآخر ملاسة الشيء.

فأما الأول فقولهم: خلقت الأديم للسقاء، إذا قدرته. قال:

لم يحشم الخالقات فريتها ... ولم يغض من نطافها السرب

ومن ذلك الخلق، وهي السجية، لأن صاحبه قد قدر عليه. وفلان خليق بكذا، وأخلق به، أي ما أخلقه، أي هو ممن يقدر فيه ذلك. والخلاق: النصيب؛ لأنه قد قدر لكل أحد نصيبه"[1]. فالخلق هنا بمعنى السجية التي يتطبع عليها الإنسان ويتكلفها في سلوكه، أي عمل وسلوك يصدر عن الإنسان.

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج2، ص214.

ويعرف "الخلق بسكون اللام وضمها السجية، وفلان يتخلق بغير خلقه أي يتكلفه"[1].

ويعرف بـأنـه " الخلق، بـالضــم وبضــمتين: الســجيـة والطبع، والمروءة والدين"[2].

يخلص من ذلك بأن الخُلُق يأتي في اللغة على عدة معانٍ وهي:

1- السجية.

2- الطبع.

3- المروءة.

4- الدين.

5- ما يتكلفه الإنسان ويُرى من خلال سلوكه الظاهري.

(1)الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ج1، ص95.

(2) الفيروزآبادي، محمد، القاموس المحيط، ص881.

ثانيا: الخلق اصطلاحا:

يعرف الخُلق بأنه "عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلًا و شرعًا بسهولة، سميت الهيئة: خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خلقًا سيئًا، وإنما قلنا: إنه هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال: خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال: خلقه الحلم، وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخصٍ خلقه السخاء، ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل، لباعث أو رياء"[1].

أي أن الأخلاق مركوزة في النفس الإنسانية تظهر من خلال السلوك الصادر عن الإنسان بسهولة وروية أي بغير تكلف من الإنسان وبتلقائية، أما من يتكلفها فليست هذه أخلاقه وإنما يعالج نفسه؛ ليخرج الخلق الحسن أو الذميم بحسب الموقف الذي يعيشه، ولهذا كانت الأخلاق على قسمين:

(1) الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، ص101.

د. محمد خالد السميري

1- الأخلاق الحسنة الجميلة التي حكم عليها الشرع بحسنها وجمالها، واستحسنها العقل البشري الصحيح السليم من العوارض، وهي فضائل كالعفة والأمانة وغيرها.

2- الأخلاق السيئة القبيحة التي حكم الشرع على أنها سيئة وقبيحة، واستقبح العقل البشري فعلها ونفر منها، وهي رذائل كالخيانة والغش وغيرها.

وتعرف الأخلاق بأنها: "مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه"[1] أي بمثابة قوانين وقواعد تنظم أعمال الإنسان، وهذه المبادئ والقواعد يحددها الوحي الإلهي -القرآن والسنة-؛ ليحقق النظام في الحياة الاجتماعية بنظام محكم له تأثير القداسة الدينية من خلال النصوص الشرعية والتي تحث على التخلق بتلك الأخلاق الحميدة.

(1) مقداد يالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، ص75.

د. محمد خالد السميري



المبحث الثاني

مركزية الأخلاق ومصدريتها في الإسلام

د. محمد خالد السميري

المبحث الثاني: مركزية الأخلاق ومصدريتها في الإسلام

المطلب الأول: مركزية الأخلاق في الإسلام

تعد الأخلاق ذات أهمية كبرى في حياة الإنســـان؛ لما لها وفيها من تأثير على سلوكه وتعامله مع نفسه ومع الآخرين، وحين تُنتزع الأخلاق من الإنســـان، ويتخلى عنها يصـــبح كالوحش الكاســـر لا يعرف حدود الله ولا حدود نفســـه، فالخلق "حقيقته أنه لصـــورة الإنســـان الباطنة وهي نفســـه وأوصـافها ومعانيها المختصـة بها بمنزلة الخلق لصـورته الظاهرة وأوصـافها ومعانيها، ولهما أوصـــاف حســـنة وقبيحة، والثواب والعقاب مما يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع"[1].

وقد وصـــف الله تعالى نبيه الكريم صـــلى الله عليه وســـلم في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم : ٤]، وحين سُئلت عائشة رضي الله عنها عن أخلاق النبي صـلى الله علسـه وسـلم: **(كان خلقه القرآن)**[2]، أي أن النبي صـــلى الله عليه وســـلم كان متمســـكا بالأخلاق الحســـنة ويدعو إليها

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج2، ص70.

(2) أخرجه أحمد، المسند، رقم: 25813.

د. محمد خالد السميري

ويحاكم ويتحاكم إليها، ويحل حلال القرآن ويحرم حرامه، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم الكثير من الأحاديث التي حث فيها على الخلق الحسن، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق)**[1]. والتقوى من محكات اختبار الإنسان، ومعيار من معايير السواء النفسي الداخلي ويترجم عملا خارجيا من خلال السلوكيات التي تصدر عن الإنسان.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا)**[2]. فكمال إيمان العبد من حسن خلقه وهذا من أكثر ما يدعو إلى أن يجاهد الإنسان نفسه على التخلق بالأخلاق الحسنة.

وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصوم والصلاة)**[3]. فإن الحديث يشير إلى أن حسن خلق الإنسان يوصله إلى مرتبة الصائم والمصلي؛ لشدة ما للخلق من تأثير على الناس ومحبب إلى الله تعالى.

---

(1) الترمذي، سنن الترمذي، رقم:2004

(2) الألباني، صحيح ابن حبان، رقم: 479.

(3) الألباني، صحيح الترغيب، رقم: 2645.

د. محمد خالد السميري

وفي حديث أبي هريرة رضـــي الله عنه أن النبي صـــلى الله عليه وســـلم قال: **(إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)**[1]. فالنبي صلى الله عليه وسلم يخبر بأنه بُعث ليتمم صالح الأخلاق، وهذا دليل على أن الأخلاق كانت موجودة قبل الإســـلام غير أنه ينقصـــها من يصـــحح مســـارها، ويوجهها إلى الخير المحض.

والأحاديث التي جاءت للحديث عن الأخلاق كثيرة؛ وذلك لمركزية الأخلاق في حياة الأفراد والجماعات، فلا يمكن تصـــور مجتمع يخلو من الأخلاق الحميدة أو السيئة، فالله خلق الناس متفاوتين في أخلاقهم وأرزاقهم كما روي عن النبي صـــلى الله عليه وســـلم: **(إن الله قســـم بينكم أخلاقكم كما قســـم بينكم أرزاقكم)**[2]، وهذا يشـــير إشـــارة دقيقة إلى الفروق الفردية في الأخلاق أي السلوك الإنساني.

(1) الألباني، صحيح الأدب المفرد، رقم:207.

(2) الألباني، ضعيف الترغيب، رقم:1076.

د. محمد خالد السميري

المطلب الثاني: مصدرية الأخلاق في الإسلام

تعد الأخلاق بمثابة الركن الأساسي لحياة الإنسان، فالإنسان بلا أخلاق يسير في طريق مظلم لا حدود له، ويبقى متخبطا في غياهب التيه والضياع، وحين الحديث عن مصدرية الأخلاق فإنه حديث عن الهوية التي تتميز بها الشعوب والأفراد، والمسلمون لهم هويتهم ورمزيتهم التي لا تضاهيها أي هوية ورمزية في هذا العالم.

وقد تميزت الأمة الإسلامية بالأخلاق الحسنة الرفيعة السامقة التي تنبع من مصدرية ربانية ثابتة عالية رفيعة وهو الوحي الإلهي الذي نظَّم حياة الأفراد والمجتمعات وفق منظومة أخلاقية فريدة ساهمت في نمو المجتمع الإسلامي، وتستنبط الأخلاق ويؤسس لها من خلال:

أولا: القرآن الكريم

وهو كتاب الله الخالد الذي ما ترك فيه ربُّنا جل وعلا شيئا إلا ووضع أسسه وقواعده في هذا الكتاب العظيم الذي أنزله وحيًا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه قال ربنا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأَنْعَام : ٣٨] فأصلح الله فيه شأن البشرية الهمجية التي كانت تقتتل على أشياء لا قيمة لها ولا وزن، فجاء الإسلام برسالة عظيمة أسست للأخلاق

الفاضـلة التي كان لها صـدىً على مرِّ التاريخ، فجاءت القيم الأخلاقية في القرآن الكريم تحث الناس على تمثُّلها والتخلق بها، كقيم الأمانة والعدل والصـدق والعفة وغيرها من الأخلاق التي جاءت في القرآن الكريم، وهي أخلاق على شـقين: أخلاق ينبغي للمسـلم أن يتخلق بها مع خالقه سـبحانه وتعالى، وأخلاق يتخلق بها مع الناس، وسـيأتي التدليل عليها بذكر الآيات الكريمة على سبيل الذكر لا الحصر ومنها:

1- **خلقا الأمانة والعدل**: وقد جاءا في قول الله تعالى ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النِّسَاء : ٥٨] فالآية حثت على خلقين عظيمين وهما أصلان للأخلاق التي تتفرع عنهما وهما خلق الأمانة وخلق العدل، وقد جعلهما الله تعالى موعظة للناس لما لهما أثر على سلوك العبد، ثم أتبع ذلك بإشارة تربوية عظيمة أن الله تعالى يسمع ويبصر سبحانه، يسمع قولك ويبصر فعلك وحركتك وامتثالك، وهي ثمرة من ثمرات الأسـماء والصـفات، يدعو الإنسـان إلى التربية العريقة وفق الأسـماء الحسـنى والصـفات العلى، ليعزز لديك الرقابة الذاتية ويفعلها، وهذا واضح لمن تأمله.

2- **خلق الصبر:** وهو خلق عظيم جاء في آيات كثيرة تحث المسلم على الصبر وتدعوه إلى التخلق به، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البَقَرَة : ٤٥] وقال: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البَلَد : ١٧] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عِمْرَان : ٢٠٠] ، فأمر سبحانه وتعالى بالاستعانة بالصبر؛ لما للصبر من فضيلة على تحمل الأذى وكظم الغيظ وتحمل المشاق، والصبر ينقسم إلى:

أ- **صبر على الطاعة،** ويكون بصبر الإنسان على أداء الطاعة لله تعالى وتحمل المشاق البدنية التي تتعلق بها كالحج مثلا.

ب- **صبر عن المعصية،** وهو أن يصبر ويحبس نفسه عن الوقوع في المعصية ابتغاء رضوان الله تعالى.

ت- **صبر على أقدار الله المؤلمة،** وهي التي لا قدرة للإنسان على دفعها كالموت والأمراض وغير ذلك، فالإنسان يبتلى في هذه الدنيا بأنواع الابتلاءات وسلاحه وعتاده الصبر.

3- **خلقا التقوى والصـدق:** وهما خلقان رفيعان دعا الله تعالى إلى أن يتمثلهما العبد ويتخلقَ بهما، بل رتب النجاة عليهما سبحانه وتعالى قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التَّوْبَة : ١١٩] فالنداء في الآية نداء مخصوص لفئة مخصوصة وهم أهل الإيمان، فالتقوى جماعها وحدودها فعل المأمور واجتناب المحظور فيحمل هذا الخلق الرفيع الإنسان على أن يفعل ما يؤمر به وهي الأمور الحسنة، ويجتنب ما ينهى عنه وهي قبائح الأفعال والأقوال.

وأما خلق الصدق فهو من الخصال المحمودة وأن يوافق الظاهرُ الباطنَ وأن يكون كلامه حقيقة، ويوافق الخبر الواقع، ويكون الصدق مع الله تعالى بالإيمان به وتصديق ما أخبر به، ويكون مع الناس من خلال صدق الحديث والمعاملة.

وقد امتدح الله نبيه إبراهيم ونبيه إدريس في قوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ٤١﴾ [مَرْيَم : ٤١] ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ٥٦﴾ [مَرْيَم : ٥٦]. لما للصدق من أهمية بالغة في حياة الإنسان، وقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التَّوْبَة : ١١٩] نزلت بعد آيات التوبة في

الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فكانت عاقبة صدقهم توبة الله تعالى عليهم، توبة يسمع بها الناس حتى يوم القيامة، وهذا فيه تربية عظيمة للمسلم، فهي توبة لهم ودعوة لنا لأن نقتفي آثارهم بخلق الصدق.

4- **خلق الإحسان:** وهو خلق رفيع جليل يقتضي إحسان الإنسان إلى نفسه وإلى الآخرين، قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٥] فإحسان الإنسان إلى نفسه بأن يؤدي الطاعات، ويبعد نفسه عن المهلكات من سيئات وأفعال توصله إلى التهلكة سواء في دينه أو دنياه، فإحسان الفرد إلى نفسه يكون بالدوام على اقتفاء أثر منظومة الأخلاق الإسلامية، وأما الإحسان إلى الناس فهو بتقديم العون والمساعدة لهم ومناصرتهم والوقوف معهم وعدم إيذائهم، وأما إلى المخلوقات الأخرى فهو بعد إيذائها والتعرض لها بالمكروه.

5- **الوفاء بالعهد:** وهو الالتزام بميثاق، فالمؤمن وفيٌّ بالعهد والله تعالى حث على خلق الوفاء بالعهد لما له من أهمية في حفظ الحقوق وهو خلق عظيم بين الإنسان وأخيه الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ

كَانَ مَسْـــُـــولًا ﴿٣٤﴾ [الإِسْرَاء : ٣٤] فالوفاء بالعهد من أخلاق المؤمن الصادق الذي يعكس شخصيته ويُرى من خلال سلوكه، والتي يبرز هذا الخلق الذي يتميز به المؤمن عن غيره، فالالتزام بأداء ما تعاهد عليه الناس يحفظ الحقوق والمروءة بين الناس.

وتعد الأخلاق الآنف ذكرها إنما هي على سبيل الذكر لا الحصر، وإنما ذكرتها للحديث عن مصـــدرية القرآن الكريم في التأســيس الأخلاقي للأمم والمجتمعات، وهذا التأســيس له تأثير في النفوس وقبول وإذعان لما للنص من قداسة ربانية تحمل الإنسان على التخلق بهذه الأخلاق تدينا لله تعالى.

ثانيا: السنة النبوية

جاء التأسيس الأخلاقي في السنة النبوية بمنظومة تابعة لمنظومة القرآن الكريم ومكملة له، والنبي صلى الله عليه وسلم قال كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **(إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)**[1]، فمجيء النبي صلى الله عليه وسلم ليتمم صالح الأخلاق التي كان عليها الناس ويوجه مسارها وفق مسار الربانية، وهذا الحديث فيه إشارة إلى أن هناك أخلاقا كانت موجودة، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم جاء ليتممها ويصحح مسارها، والنبي صلى الله عليه وسلم ورد عنه أحاديث كثيرة في الحث على الأخلاق الرفيعة، فمنها:

1- أخلاق جُمعت في حديث واحد من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم: كما في حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم)**[2]. فالحديث

(1) الألباني، صحيح الأدب المفرد، رقم:207.

(2) رواه أحمد، المسند، رقم:22809.

د. محمد خالد السميري

حث على خلق الصـــدق وإيفاء العهد والأمانة وقد تقدم الحديث عنهم، وذكر خلق العفة وهو في قوله **(واحفظوا فروجكم)**، وهذا خلق عظيم يحمل الإنسان على عدم الاقتراب من محارم الله تعالى كالزنا، وخلق غض البصـــر، وعدم تتبع العورات، ومشـــاهدة ما لا يحل للمسلم أن يشاهده، وكف اليد عن الأشياء التي لا تحل للمسلم أن يأخذها بغير حق.

2- **خلق الصبر:** وقد ورد في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة كما في حديث عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أنه قال: **(إن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم. حتى إذا نفد ما عنده. قال: ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم. ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله. ومن يصبر يصبره الله. وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر)**[1].

3- **خلق النصيحة:** فقد جاء في حديث تميم الداري - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الدين النصيحة. قلنا: لمن؟**

(1) رواه البخاري، صحيح البخاري، رقم: 1469.

د. محمد خالد السميري

قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1]، فالنصيحة: خلق المسلم الصادق الغيور على دينه وعلى الآخرين، قال الخطابي: "فمعنى النصيحة لله سبحانه صحة الاعتقاد في وحدانيته وإخلاص النية في عبادته، والنصيحة لكتاب الله الإيمان به والعمل بما فيه، والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه، والنصيحة لأئمة المؤمنين أن يطيعهم في الحق وأن لا يرى الخروج عليهم بالسيف إذا جاروا، والنصيحة لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم"[2].

4- **خلق الحياء:** وهو خلق يحمل الإنسان على الخير كما بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاءت الأحاديث في ذكر الحياء ومدحه كخلق مفطور في الإنسان، ومن نزع منه الحياء عدم منه الخير، روي في الحديث الصحيح **عن يعلى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- رأى رجلا يغتسل بالبراز فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال إن الله عز وجل حليم حيي ستير يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم**

(1) مسلم، صحيح مسلم، رقم: 55

(2) الخطابي، معالم السنن، ج4، ص126.

د. محمد خالد السميري

فليستتر)[1] وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- **(إن لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء)**[2].

ثالثا: الاستحسان والعرف:

وهما مصدران من مصادر الحكم على الأخلاق، ويخضع إلى معايير عقلية ومجتمعية تابعة للوحي، فما كان من أخلاق تعارف الناس على أنها محمودة ولا تخالف الشرع، فإنها أخلاق محمودة، وما تعارف الناس عليها أنها أخلاق مذمومة فإنها مذمومة، وهذا تابع للعرف المجتمعي الذي تعارف الناس عليه، وينبغي على المسلم أن لا يخالف العرف إلا إذا كان العرف مخالفا للشرع، فوقتئذٍ الشرع أولى بالاتباع وهو الأسلم عند الله تعالى، وقد تعارف الناس على أخلاق محمودة بحسب كل بيئة ومجتمع والتزموا بها وعدوها قوانين مجتمعية في التعامل، وهي التحسينيات التي تخضع لمعيارية القبول أو النبذ من قبل الناس.

(1) أبو داود، سنن أبي داود، رقم:4012

(2) الألباني، صحيح ابن ماجه، رقم3389

د. محمد خالد السميري



المبحث الثالث

اكتساب الأخلاق

د. محمد خالد السميري

المبحث الثالث: اكتساب الأخلاق

يتناول علماء الإسـلام العوامل المؤثرة في أخلاق الإنسـان من حيث عرض الوراثة كمؤثر أسـاسـي تكويني، والبيئة كمؤثر ثانوي خارجي، وجاءت الأحاديث لتدل على أن الأخلاق تتفاوت بين الناس، وأن وهناك مؤثرات وفروقا فردية في الأخلاق ومنها ما رواه البخاري ومسـلم عن أبي هريرة قال: قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: **(الناس معادن كمعادن الذهب والفضـة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسـلام إذا فقهوا)**[1]، فيختلف الناس في الخيرية بحسب اعتبارات عدة منها ما أشار إليه الحديث الآنف ذكره.

ومنها ما رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود بإسـناد صـحيح عن أبي موسى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسـود وبين ذلك، والسـهل والحزن، والخبيث والطيب)**[2]. فاختلفت هذه الأخلاق التي جاءت لتبين طبقات الناس

(1) البخاري، صحيح البخاري، رقم: 3383.

(2) الألباني، صحيح الجامع، برقم:1759.

د. محمد خالد السميري

وطبائعهم، والناس تختلف في اكتساب الخلق بحسب الاستعداد النفسي لقبولها والتربية التي يتربون عليها وتؤثر في سلوكهم، وسيأتي تفصيل ذلك وفق المطالب الآتية:

د. محمد خالد السميري

المطلب الأول: الأخلاق الفطرية

اختُلف في طبيعة الأخلاق هل هي فطرية يولد الإنسان وهو متطبع بها ومركوزة فيه أم أنها مكتسبة بالتدريب والتمرن والتعلم أي من البيئة المحيطة بالفرد، ويطرح ابن القيم تساؤلا ويجيب عليه حول الطبيعة والاكتساب للأخلاق، فيقول: "هل يمكن أن يقع الخُلُق كسبيا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟ قلت: يمكن أن يقع كسبيا بالتخلق والتكلف، حتى يصير له سجية وملكة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس رضي الله عنه **(إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم، والأناة. فقال: أخلقين تخلقت بهما، أم جبلني الله عليهما؟ فقال: بل جبلك الله عليهما. فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله)**[1]، فدل على أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح: **(اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت)**[2]، فذكر الكسب

(1) أبو داود، سنن أبي داود، باب في قبلة الرجل، حديث:5335.

(2) أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم:803.

د. محمد خالد السميري

والقدر"[1].أي أن الإنسان يولد ولديه أخلاق مركوزة ومطبوعة في طبيعته، ولديه أخلاق يكتسبها من البيئة المحيطة به وما يشاهده من مؤثرات خارجية تؤثر في سلوكه.

ووفق نظرة ابن القيم واستشهاده بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، يرى أن الأخلاق منها وما هو موروث مطبوع عليه الإنسان وهو ما يسمى بالصبغات الوراثية التي اكتسبها الأبناء من الآباء والتي أصبحت جزءا من أخلاقهم وتؤثر فيهم، وأن منها ما هو مكتسب من خلال الخبرات التعليمية التي يمر بها الإنسان في البيئة التي يعيش فيها، من بيئة أسرية وبيئة اجتماعية وبيئة نفسية مؤثرة في الا ستجابات السلوكية التي يعيشها الإنسان في حياته وما تمت تربيته عليه.

والبيئة تسهم في تشكيل أخلاق الإنسان، "فمقتضى الطبيعة العادية أن يحتذي الرجل حذو أبيه حتى في الصناعات والمساكن والملابس والمطاعم إذا هو رباه، ولهذا كان أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه"[2]، وهي إشارة إلى أن البيئة الأسرية لها تأثير كبير في تكوين خلق الإنسان، فالوالدان

(1) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص300.

(2) ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ج2، ص1012.

د. محمد خالد السميري

يكســبان الابن الوراثة البيولوجية التي خلق عليها بســبب تلاقح الخليتين الذكرية والأنثوية ويكســبانه الأخلاق التي يربونه عليها من عادات وتقاليد ومهارات وحرف يكتسبها بالتعلم والخبرة والتربية، في حين أن الإشارة كلها كانت إلى ما تكونت منه أخلاق الإنسان بداية وهي الفطرة التي كونت أصل الإنسان، "فالله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا، ولكن فطرته سبحانه موجبة مقتضـية لمعرفة دين الإسـلام، ومحبته، ففطروا على فطرة مسـتلزمة للإقرار بالخالق، ومحبته، وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصـل شيئا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سـلمت عن المعارض"[1]، فموجبات الفطرة هي أن يسعى الفرد إلى ما يتعلمه في البيئة التي يعيش فيها، والمعارض هي الأحوال والأحداث التي حرفت الفطرة عن مســارها التي كانت تســير فيه، فإما أن توجه إلى خير وإما أن توجه إلى شــر بحســب الجوانب كلها.

"فالأمور الفطرية تتعلق بجميع جوانب الشـخصـية العقلية والنفسـية والسلوكية والاجتماعية، هذا يعني أن الإنسان يرث هذه الجوانب فتكون في

(1) ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ج2، ص1020.

د. محمد خالد السميري

أصلها محايدة، فتجليها العوامل البيئية المختلفة"[1]، وهي الأحوال التي أوردها ابن القيم والتي أثرت في تشكيل أخلاق الإنسان، تكون غير فاعلة وإنما تظهر بسبب البيئة التي يعيش فيها الإنسان.

ويشترك الحديث عن الفطرة والتعليم واتحادهما في تكوين الأفعال التي تصدر عن الإنسان، إذ الخصائص الموروثة واتحادها مع البيئة هي التي تشكل أخلاق الإنسان، فيقول: "فلولا قوة في الفطرة والنفس الناطقة اختُص بها الإنسان دون الحيوان يقبل بها أن يعرف الحق ويريده، وأنه لو كان السبب مجرد التعليم من غير قوة قابلة لحصل ذلك في الجمادات والحيوانات؛ لأن السبب واحد ولا قوة، فعلم أن حصول ذلك في محل دون محل هو لاختلاف القوابل والاستعدادات"[2].

فالتأثير بين الوراثة التي جبل عليها الإنسان مع البيئة التي اكتسب منها العلوم والمهارات والخبرات هما سبب تكوين أخلاق الإنسان بما يصدر عنه من سلوك خير أو سلوك شر، وفيه من الاستعدادات والقابلية التي تحمله على ذلك.

(1) الشريفين، عماد، ومطالقة، أحلام، أثر والوراثة والبيئة في بناء الشخصية الإنسانية، ص19.

(2) ابن القيم، شفاء العليل، ص305.

وأول بـدء خلق الإنســـان وهو اتحـاد مـاء الرجـل مع مـاء الأنثى، "فباختلاف ما تتكون منه النطفة التي يتكون منها الولد، ودم الطمث الذي يتربى به الولد، فذلك له تأثير بحســب طيب ما تكونا منه وخبثه"[1]، وفي هذا إشـارة إلى التكوين الوراثي الذي يكتسـبه الإنسـان في بداية نشـأته، ثم يشـير إلى ذات المعنى بقوله: "ولكون الإنســان من قوى مختلفة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ ﴾ الإنسـان: ٢، أي مختلطة من قوى أشياء مختلفة"[2]، والنطفة كما فسرت في قولـه تعـالى "إنـا خلقنـا ذرّيـة آدم من نطفـة، يعني: من مـاء الرجـل ومـاء المرأة"[3]، فاتحاد ماء الرجل مع ماء الأنثى أدى إلى تخلق الجنين في بطن أمه بأطواره المتعددة.

وجبلة الإنســان التي طبعت فيه أن يتحرى ما فيه منفعة ومصــلحة له، "ولما كان من جبلة الإنســان أن يتحرى ما فيه اللذة، وكانت اللذات على

(1) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص56.

(2) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص29.

(3) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج24، ص88.

ضربين: إحداهما محسوس كلذة المذوقات والملموسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات وهي من توابع الشهوة الحيوانية، والثاني: معقول كلذة العلم وتعاطي الخير وفعل الجميل، واللذات المحسوسة أغلب فينا؛ لأنها توجد في الإنسان قبل أن يولد"[1]، وهو الطبع الذي انطبع فيه "والطبع: أصله من طبع السيف: اتخاذ الصورة المخصوصة من الحديد، وكذلك الطبيعة والضريبة اعتبارًا بضرب الدراهم، والغريزة اعتبارًا بما غرز عليه، وكل ذلك اسم للقوة التي لا سبيل إلى تغييرها، والشيمة اسم للحالة التي عليها الغريزة، اعتبارًا بالشامة في أصل الخلقة"[2]، وهي حالة ولد عليها الإنسان واكتسبها من البيئة الداخلية أي الموروثات الجينية، فالخَلق الذي خلق عليه إنما هو بفعل الجينات الوراثية التي اكتسبها من الأبوين فلا سبيل له إلى تغييرها.

والقرآن الكريم نزل بلغة العرب، واللغة هي وعاء المعاني التي جاءت لتفسر معنى الطبيعة والجبلة، "وإن لغة العرب القديمة ذكرت الطبيعة والخليقة والسليقة والغريزة والسجية والسيمة والجبلة بالجيم، ولا يشك

(1) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص31.

(2) الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص96.

د. محمد خالد السميري

ذو علم في أن هذه الألفاظ استعملت في الجاهلية، وسمعها النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينكرها قط، ولا أنكرها أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولا أحد ممن بعدهم حتى حدث من لا يعتد به، وقد قال امرؤ القيس: وإن كنت قد ساءتك مني خليقة، وقال حميد بن ثور الهلالي الكندي:

لكل امرئ يا أم عمرو طبيعة ... وتفرق ما بين الرجال الطبائع"[1]

وبهذا العرض والطرح يثبت أن لكل إنسان طبيعة وجبلة خلق عليها، وأن التفريق بين الناس إنما هو باختلاف الطبائع الموجودة في نفوسهم، والتي اكتسبوها بفعل الصبغات الوراثية من الوالدين، وهي اتحاد ماء الرجل مع ماء الأنثى "ولا تزال يبعث منها جملة بعد الجملة فينفخها في الأجساد المتولدة من المني المتحدر من أصلاب الرجال وأرحام النساء كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ القيامة: ٣٧ - ٣٨"[2]، ففي اتحاد النطفتين خلق الإنسان وأجرى الحياة فيه.

(1) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج5، 11.

(2) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج4، ص59.

د. محمد خالد السميري

"وكل هذه الطبائع والعادات مخلوقة خلقها الله عز وجل فرتب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبدا، ولا يمكن تبدلها عند كل ذي عقل، كطبيعة الإنسان بأن يكون ممكنا له التصرف في العلوم والصناعات إن لم يعترضه آفة، وطبيعة الحمير والبغال بأنه غير ممكن منها ذلك"[1] وبهذا فإن الموروثات لا تتغير ولا تتبدل ويرى أن الصفات المحمولة في الموصوف تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: "ممتنع الزوال كالفطس والقصر والزرق و سواد الزنجي ونحو ذلك إلا أنه لو توهم زائلا لبقي الإنسان إنسانا بحاله"[2] فهذه الصفات لا يمكن أن تتبدل أو تتغير فهي لازمة في الإنسان غير قابلة للتعديل.

الثاني: "بطيء الزوال كسواد الشعر، وما أشبه ذلك"[3] فهذه الطبائع التي أوجدت في الإنسان بطيئة الزوال كسواد الشعر حين ينتقل ويتحول من السواد إلى البياض.

(1) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج5، ص12

(2) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج5، ص12.

(3) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج5، ص12.

د. محمد خالد السميري

الثالث: "ســريع الزوال كحمرة الخجل وصــفرة الوجل وكمدة الهم ونحو ذلك"[1]، وهذه الانفعالات والصـفات التي يمكن أن تتغير بسـرعة وهي من طبيعة الإنسان وما يعتريها من تغيرات وصفات.

وأول مبدأ الإنســان من نطفة، "وهذا الآدمي الذي أنشــأه من قطرة، وبناه على أعجب فطرة، ورزقه الفهم والذهن، واليقظة والعلم"[2]، وهو من عظيم صنع الله تعالى الذي أنشأ الإنسان في بداية أمره من اتحاد النطف معا، وأودع فيه جبلة وطبيعة مسـتقرة في نفسـه، "فترى البخيل يحمل على نفسـه العجائب، ويمنعها اللذات، وتصـير لذاته في جمع المال وهذه جبلة في خلق كثير"[3]، أي خلق الله تعالى النفس على طبيعة مودعة فيها بأعجب تركيب، حتى تبقى مستمرة في الإنسان.

وهذه الجبلة والطبيعة التي خلق الله عليها الإنسـان يسـتطيع من خلال التمرن والمجاهدة بتحويلها إلى الســلوك المحمود، "وينبغي أن يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبع ومخالفته، خصــوصًــا في الأفعال اللازمة في

(1) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج5، ص12.

(2) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص379.

(3) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص304.

د. محمد خالد السميري

جمع المال، لأنها بالرياضة تتغير طباعها"[1] أي الصفات منها ما هو موروث ومنها ما هو مكتسب، ويستطيع الإنسان تغيير بعض الصفات الموروثة بتعديلها وضبطها وتمرينها، وهي ما عناه الرياضة والمجاهدة، وتمرين النفس على فعل ما هو حسن، وكبح جماحها عن كل قبيح.

(1) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص304.

د. محمد خالد السميري

المطلب الثاني: الأخلاق المكتسبة

يعد الحديث عن اكتســـاب الأخلاق أمرا مهما لما لها من تأثيرات تســـهم بشـــكل مباشـــر في اكتســـاب الأخلاق من المحيط الذي يعيش فيه الإنسـان، ويتعامل ويتفاعل معه في حياته، وطبيعة الإنسـان تتأثر بما يشـاهده ويعاينه ويخالطه، وتعد من أقوى المؤثرات في تشـــكيل الأخلاق، وتســـهم إســـهاما كبيرا في تشـــكيل الأخلاق إما في الاعتدال وإما في الانحراف، وقد روى أبو سـعيد الخدري رضـي الله عنه أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قال: **(كانَ في بَنِي إسْـرائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْـعَةً وتِسْـعِينَ إنْسـانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْـأَلُ، فأتَى راهِبًا فَسَألَهُ فقالَ له: هلْ مِن تَوْبَةٍ؟ قالَ: لا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فقالَ له رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذا وكَذا، فأدْرَكَهُ المَوْتُ، فَناءَ بصَـــدْرِهِ نَحْوَها، فاخْتَصَـــمَتْ فيه مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذابِ، فأوْحَى اللهُ إلى هذِه أنْ تَقَرَّبِي، وأَوْحَى اللهُ إلى هذِه أنْ تَباعَدِي، وقالَ: قِيسُوا ما بيْنَهُما، فَوُجِدَ إلى هذِه أقْرَبَ بشِبْرٍ، فَغُفِرَ له**[1] فهذا الحديث يدل على أنَّ الفرد إذا أراد تعديل ســـلوكه فعليه أن يغير البيئة التي يعيش فيها، ويأتي الحديث وفق التفصيل الآتي:

(1) البخاري، صحيح البخاري، حديث:3470.

د. محمد خالد السميري

أولا: تأثير البيئة الأسرية

تلعب الأسرة دورا كبيرا في تشكيل أخلاق الإنسان منذ بداية نشأته؛ لأنها المحضن الأول الذي ينشأ الفرد فيه، وما يراه ويكتسبه في بداية حياته من سلوك إنما هو من الأسرة بأركانها من والدين وإخوة، ولذلك كان لها الأثر الأكبر في اكتساب الأخلاق، وهي التي تضيف شرعية الخلق للأبناء، فما وافقت الأسرة على التخلق به سيكون بالنسبة للأبناء هو السلوك الصحيح حتى وإن كان في معيار الشرع والعرف ليس صحيحا، وهذا في غاية الخطورة، وعليه ينبغي أن تراعي الأسرة حدود الله تعالى في تربية أبنائها ورعايتهم.

ويشير ابن القيم إلى البيئة التربوية في معرض حديثه عن الأخلاق وتشكيلها في الإنسان من بداية نشأته فيقول: "ومانع الإلف والعادة والمنشأ؛ فإن العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة، ولهذا قيل: هي طبيعة ثانية؛ فيربى الرجل على المقالة وينشَّأ عليها صغيرا، فيتربى قلبه ونفسه عليها كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد"[1]، فالبيئة التربوية لها قوة في تربية

(1) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج1، ص270.

د. محمد خالد السميري

الشخصية الإنسانية سواء كانت تربية معتدلة أو منحرفة، فالسلوك الناشئ عن التربية المنحرفة سلوك منحرف ذميم، والسلوك الناشئ عن التربية المعتدلة سلوك معتدل محمود، والسلوك يشير إلى الدافع الذي حرك الشخصية الإنسانية على الفعل، وبالتالي فإن انحراف التربية وتشويهها من المؤثرات في الأخلاق الإنسانية.

ويرى الغزالي أن نشأة الإنسان وتربيته على الخير أو الشر هي من أسباب اعتدال الخلق أو انحرافه، فيقول: "يكون الإنسان مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس، ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره"[1]، بمعنى أن الإنسان يتربى على الرأي الفاسد والعمل به منذ نشأته وبدايته، ويظن أن الفعل الذي يقوم به فعل حميد، فالتربية التي تربى عليها زرعت في شخصيته وتأثر بها تأثرا كبيرا حتى بات لا يميز بين الخير والشر، فينحرف الدافع بسبب انحراف التربية من الخير إلى الشر، وبالتالي يصدر الخلق المنحرف.

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص56.

د. محمد خالد السميري

ويعتبر الأصفهاني أن البيئة الأسرية التي ينشأ فيها الأبناء هي من المؤثرات التي تؤثر في الأخلاق، وهي التي يشير إليها بسبب تفاوت الناس، فيرجع الاختلاف إلى "اختلاف أحوال الوالدين في الصلاح والفساد، وذلك أن الإنسان يرث من أبويه آثار ما هما عليه من جميل السيرة والخلق وقبيحهما، كما يرث مشابهتهما في خلقهما، ولهذا قال تعالى: **(وكان أبوهما صالحا)**"[1]، والطعام الذي يأكله له تأثير في أخلاقه "واختلاف الناس بسبب اختلاف ما يتفقد به من الرضاع ومن طيب المطعم الذي يتربى به، واختلاف أحوالهم في تأديبهم وتلقينهم وتطبيعهم وتعويدهم العادات الحسنة والقبيحة"[2] وذلك كله في البيئة الأسرية التي يتربى فيها الإنسان، فيأخذ الطباع والأخلاق بالاكتساب والتمرن من خلال ما يراه من والديه وبيئته التي يعيش فيها.

ويرى الأصفهاني أن التأديب والتربية لهما دور في انحراف أخلاق الإنسان من عدمه، فيقول: "واختلاف أحوالهم في تأديبهم وتلقينهم وتطبيعهم وتعوديهم العادات الحسنة والقبيحة، فحق الولد على الوالدين

(1) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص55.

(2) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص56.

أن يؤخذ بالآداب الشــرعية، وإخطار الحق ببالـه وتعويده فعل الخير"[1]، فالوالدان هما الركن الأســاســي اللذان يلعبان دورا هاما في تعليم الأبناء وتربيتهم على الأفعال الحسنة الصادرة عن دافع معتدل، أو الأفعال السيئة القبيحة الصادرة عن دافع منحرف.

وأما على جانب البيئة الأسرية فإن لها تأثيرا كبيرا في تشكيل السلوك الإنساني من حيث ما يمارسه من سلوك في أسرته التي يعيش فيه، فيرى أن الأخلاق أي السلوك الفاضل ينشأ من البداية "وهو أن يكون طيب الطينة معتدل الأمزجة جاريـًا في أصلاب آباء صالحين ذوي أمانة واستقامة، متكونا من نطفة طيبة ومن دم طمث طيب على مقتضى الشرع، ومرتضعا بدَر طيب، ومأخوذا في صغره من قبل مربيه بالآداب الصالحة وبالصيانة عن مصاحبة الأشــرار"[2]، فجمع في كلامه التنشــئة الأولى وهي الجينات والصــبغات الوراثية، ثم البيئة الأسرية التي يتربى فيها، والطعام والشراب الذي يغذيه ثم البيئة المجتمعية التي تسهم في تشكيل سلوكه، وبهذا تكتمل حلقة الحديث عن تكوين الوراثة والبيئة بأقسامها في فكر الأصفهاني.

(1) الراغب، الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص56.

(2) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص57.

ويرى ابن الجوزي أن البيئة الأسرية هي أولى البيئات التي تعمل على تشكيل السلوك للفرد، وأن لها تأثيرا فيما يصدر عنه، فيقول عن الوالدين: "فهما يربيان ولدهما ويعلمانه، ويحملانه على مصالحه، ولا ينبغي أن يفترا عن تأديبه وتعليمه؛ فإن التعليم في الصغر كالنقش في الحجر"[1]، وهذه التربية التي ينشأ عليها المولود تؤثر في استجاباته السلوكية التي تصدر عنه؛ لأن المولود في بداية عمره مستعد للتعلم كيفما يرد عليه من أنواع العلوم.

ولذلك فإن ابن الجوزي يرى أن المرحلة أو الموسم الذي هو فيه يترتب على الوالدين تعليم الصبي، "فيعلمانه الطهارة، والصلاة ويضربانه على تركها إذا بلغ تسع سنين، ويحفظانه القرآن، ويسمعانه الحديث، وما احتمل من العلم أمراه به، ويقبحان عنده ما يقبح، ويحثانه على مكارم الأخلاق، ولا يفتران عن تعليمه على قدر ما يحتمل؛ فإنه موسم الزرع"[2] أي البيئة الأسرية تشكل منحى هاما في تهذيب أخلاق الفرد، وتعمل على غرس الأخلاق الفاضلة فيه، بدءا من تعليمه أركان الإسلام إلى الأخلاق التي ينبغي أن يتمثلها في حياته بطريقة مستمرة.

(1) ابن الجوزي، تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر على مواسم العمر، ص39.

(2) ابن الجوزي، تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر على مواسم العمر، ص39-40.

د. محمد خالد السميري

ثانيا: تأثير البيئة التعليمية

تلعب البيئة التعليمية دورا هاما في تشكيل أخلاق الإنسان، فما يتعلمه الإنسان من خلال الاكتساب يؤثر تأثيرا كبيرا في دوافعه ومنطلقاته وأخلاقه، ويرى ابن القيم ضــرورة العلم المنافي للجهل في انحراف الخلق فما يتعلمه يؤثر فيه بشكل كبير، فيقول: "وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس؛ لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبا للإيمان أو حكمه، فإن فارقه الإيمان أو حكمه في نفس من أنفاســه فقد عطب وقرب هلاكه، وليس إلى حصــول ذلك ســبيل إلا بالعلم؛ فالحاجة إليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب"[1]، وكما أن حاجة الإنسان للطعام والشراب ليحفظ بقاءه ودوامه واستمرار نسله تعد ضرورة كبرى للشخصية الإنسانية، فإن الحاجة أيضا للعلم ضرورة في تشكيل دوافع أخلاق الإنسان، والعلم من المؤثرات الكبرى في الشــخصــية الإنســانية، وهي مكتســبة من البيئة المحيطة للفرد والمشكِّلة لأخلاقه.

(1) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج1، ص226.

د. محمد خالد السميري

ويشير ابن القيم إلى أمور تقع في التربية والتنشئة الأسرية وهي البيئة التي يعيش فيها الطفل في بدايات ولادته وصغره أي الأسرة، فيقول: "ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه فإنه ينشأ على ما عوده المربي في صغره من حرد وغضب ولجاج وعجلة وخفة مع هواه وطيش وحدة وجشع؛ فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها"[1]، فالبيئة الأسرية بيئة هامة في تنشئة أفرادها والتأثير فيهم، حيث يتربى على السلوك الذي تعلمه ومارسه واعتاده، حتى تصبح أخلاق يصعب التخلص منها.

ويشير الغزالي إلى أن الإنسان يُخلق و قد جبلت فيه أخلاق منذ المرحلة التكوينية في البيئة الرحمية، فأشار إلى أن "قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود، فإن قوة الشهوة والغضب والتكبير موجودة في الإنسان، وإنها أقدم وجودا؛ إذ في الصبي في مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة"[2]، أي في أصل خلقة الإنسان فإن الجبلة التي جبل عليها الإنسان هي من

(1) ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود، ص240.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص56.

المؤثرات في ســلوكه الطبيعي، "فكل قلب هو بالفطرة صــالح لمعرفة الحقائق"[1]، التي اكتســبها في فطرته وهو في بطن أمه في المرحلة الجنينية و مدة التكوين، وهناك أخلاق اكتســبها في فطرته قبل أن يتعلمها، "و كل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك"[2]، فالسلوك الذي اكتسبه إنما اكتسبه في المراحل الأولى من تخليقه، ويحتاج هذا السلوك إلى تمرين وتدريب وممارسة.

ويرى الغزالي أن بعض الأخلاق قد تكون بالفطرة وقد تكون بالاكتســاب، "ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتســاب، فرب صبي خلق صادق اللهجة سخيا جريا، وربما يخلق بخلافه، فيحصل ذلك بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق وربما يحصــل بالتعلم"[3] فالبيئة التي ينتمي إليها المولود ويكتسب منها خبراته التعلمية وأخلاقه التي أورثته ســلوكا ينبئ عن تأثير الوراثة والبيئة، قد تجعله يكتســب الأخلاق الحسنة أو الأخلاق السيئة، وفي جانب البيئة الأسرية أو الوالدية فإن للأبوين

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ج3، ص96.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص53.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص60.

تأثيرا كبيرا في تشكيل سلوك الأبناء، حيث "إن كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل"(1)، فيحصل للفطرة ما يغير مسارها بالتعليم والعادات الموروثة والخبرة.

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص60-61.

د. محمد خالد السميري

ثالثا: تأثير البيئة الاجتماعية

تلعب البيئة الاجتماعية دورا مهما في انحراف أخلاق الإنسان؛ وذلك من حيث المخالطة والاكتســاب من البيئة التي يعيش فيها الإنســان، فإنها تسهم في تعزيز دوافع الإنسان نحو الخير أو الشر، فالإنسان يتعلم من بيئته ما يراه ويمارسه غيره، وهذا التطبيع الاجتماعي له دور في السلوك الإنساني.

و تأثير البيئة الاجتماعية وهي الدائرة الأكبر فإنه يقول: "يجب أن يتجنب الصــبي إذا عقل مجالس اللهو والباطل والغناء وســماع الفحش والبدع ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر وعز على وليه استنقاذه منه"[1]، لما للبيئة الأسرية أولا والبيئة الاجتماعية ثانيا من تأثير بالغ الأهمية في السلوك الإنساني وتكوين اتجاهات انفعالية وسلوكية لدى الأبناء.

ويشــير الغزالي إلى أن ما في الطبع والفطرة قد يتأثر بعملية التطبيع الاجتماعي، والبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، فيقول: "ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتســاب، فرب صــبي خلق صــادق اللهجة

(1) ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود، ص240.

د. محمد خالد السميري

سخيا جريا، وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق وربما يحصل بالتعلم"[1]، فالبيئة الاجتماعية تلعب دورا كبيرا في تشكيل دوافع السلوك، وقد يكون الإنسان خلق على طبيعة معينة إما محمودة أو مذمومة، ومن خلال ما يرى من سلوك في مجتمعه يغيره ويعيده عن انحرافه وربما العكس، المخالطة لها تأثير كبير في تشكيل دوافع الإنسان، والتعليم سواء كان منحرفا او معتدلا، ويسهم أيضا في تشكيل الأخلاق.

ويرى الأصفهاني أن اختلاف الناس له دور في انحراف الأخلاق أو اعتدالها ويرجع إلى "اختلاف من يتخصص به ويخالطه، فيأخذ طريقته فيما يتمذهب به عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه"[2]، والمخالطة والتطبيع الاجتماعي من المؤثرات في انحراف الأخلاق، فإذا كان من يخالطه لديه انحراف سيكتسب ذلك الانحراف، وبالتالي يؤثر في دوافعه وينتج عنها سلوكا منحرفا.

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص58.

(2) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص57.

د. محمد خالد السميري

وللبيئة المجتمعية في رأي الغزالي من أقران الخير ورفاق الصـــلاح تأثير كبير في تشـكيل الأخلاق وسـلوك الإنســان، حيث يرى "أن الأخلاق الحســنة تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشـــاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصـــاحبتهم، وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح؛ إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا"[1].

فبعض الأخلاق بالطبع مجبولة وبعضها بالتمرن والخبرة والمشاهدة، "فمن أراد أن يحصـــل لنفســـه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفســـه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصير به جوادا"[2] أي الإنسان يستطيع أن يغير السلوك الذي نشأ عليه وكان في أخلاقه مغروسا من خلال المجاهدة والتكلف أي التمرن عليه حتى يصبح عادة يسير عليها ولا ينفك عن ممارســتها، "ولو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصـــايا

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص60.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص60.

د. محمد خالد السميري

والمواعظ والتأديبات"[1]، و به يحصل التحول من الأخلاق القبيحة إلى الأخلاق الحسنة.

وأما الأخلاق المكتسبة فإن الأصفهاني يرى أن الإنسان يمكن لها أن يغير من أخلاقه، فيقول: "فالله خلقه خلقة ما، وجعل فيه قوة، ورشح الإنسان لإكماله، وتغيير حاله وإن لم يرشحه لتغيير ذاته، كالنواة التي جعل فيها قوة النخل، وسهل للإنسان سبيلا إلى أن يجعله بعون اللّه نخلة، أو أن يفسده إفسادا"[2] فالإنسان يستطيع بذاته أن يتطبع على أطباع بالتعلم والاكتساب؛ لتغير من الأخلاق التي اكتسبها، "ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، ولما جوَّز العقل أن يقال للعبد لم فعلتَ، ولم تركتَ، وكيف يكون هذا في الإنسان ممتنعا"[3]، وهي إشارة إلى أن الإنسان تتغير صفاته وأطباعه من خلال البيئة التي يعيش فيها، فإن كانت البيئة إيمانية تلتزم الأمر والنهي فإن السلوك السوي سينشأ، وإن كانت غير ذلك فما لها طريق إلا السلوك المنحرف.

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص55.

(2) الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص98.

(3) الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص98.



المبحث الرابع

فلسفة تشكل الأخلاق وكيفية نشوئها

المبحث الخامس: فلسفة تشكُّل الأخلاق ونشوئها

عند الحديث عن تشكل الأخلاق وفلسفة نشوئها فإننا نطرح تساؤلاً ألا وهو، **كيف يتم تشكل الأخلاق وابتداء نشوئها لدى الفرد؟** وهذا التساؤل يدور في أذهان الباحثين والقارئين؛ لمركزية السلوك الذي نبع من الأخلاق التي تمثلها الفرد، ولأهميتها، وهو طريق لفهمها؛ لأن الفهم يعين على تفسير السلوك والحكم عليه وفق المعايير التي تكتنفه، فلابد من معرفة معادلة تشكل السلوك الإنساني والقوى الغريزية المؤثرة فيه، ولابد من إيضاح فلسفة تشكل الأخلاق، ويأتي تفصيلها على النحو الآتي:

أولا: معادلة تشكُّل الأخلاق (السلوك)

إن السلوك الإنساني لا ينشأ دفعة واحدة، وإنما يتدرج في التشكل وله معادلة واضحة المعالم والمفاصل في حدوثه وتشكله لدى الفرد، وهذه المعادلة هي أساس كل سلوك ينشأ، وهي التي تجعل الإنسان يفهم سلوكه حتى يسهل عليه الحكم عليه وفق المعايير التي يحتكم إليها، ويسهلَ عليه علاجها إن كانت غير سوية، وقد أبدع ابن القيم حين وصف هذه المعادلة العجيبة في تشكل السلوك فيقول: "فإذا دَفعتَ الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكراً جوالاً، فاستخدم الإرادة فتساعدك هي

د. محمد خالد السميري

والفكر على اسـتخدام الجوارح، فإن تعذّر اسـتخدامها رجعا إلى القلب بالتمني والشـهوة، ومن المعلوم أن إصـلاح الخواطر أسـهل من إصـلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسـهل من تدارك فسـاد العمل، وتداركه أسـهل من قطع العوائد، فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شـيء بإصـلاحه من نفسـك، فإن هذه خاصتك وحقيقتك، ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئاً خسيساً لم يكن في سائر أمره إلا كذلك"[1].

ومن هنا فإن "السلوك الصالح أو الفاسد يتكون من حلقات بعضها أكبر من بعض، تبدأ بداية من "الخاطرة"، والتي إن تمت أصبحت "فكرة"، ثم كوّنت "إرادة = دافع"، وبعدها "سـلوك = خلق" وأخيراً يتحول إلى "قيمة"، فإصلاح البداية أسهل من إصلاح النهاية"[2]، وسيرا على القاعدة العقلية المشهورة **"الدفع أولى من الرفع"** أي دفع المشكلة قبل الوقوع فيها أولى وأسهل من رفعها بعد الوقوع فيها، ويصل الإنسان إلى مرحلة الثبات، وذلك لمَّا تتشكل القيمة وتصبح راسخة في النفس والأعمال.

(1) ابن القيم، الفوائد، ص 195.

(2) صالح، خولة علي، الإرشاد السلوكي في التصور الإسلامي، ص105.

د. محمد خالد السميري

والشكل الآتي يوضح هذه المراحل:



وكما يشير قول ابن القيم إلى مبدأ تأسيس البدايات وتقديم الأولويات، ويعني هذا المبدأ: أن "الأصل في التربية هو تأسيس البدايات، فاذا أسس الفرد في بداياته على المنهج القويم، وفق مناهج وأساليب تربوية صحيحة، واستقر ذلك في وجدانه وسلوكه العملي، وشبَّ عليه، اكتسب حصانته وحمايته ضد كل فساد وغواية"[1].

(1) الديب، ابراهيم، القيم التأسيسية البناء الرباني المعاصر، ص9.

د. محمد خالد السميري

ثانيا: القوى الغريزية المؤثرة في السلوك

وقد ركب الله جل وعلا الإنسان على قوى داخلية غير منفكة عن الإنسان، وهي في أصل نشأته وتركيبه البيولوجي تؤثر في الإنسان وتدفعه إلى ما يريده من أهداف وهي قوة داخلية تَـؤزُّ الفرد إلى فعل أشياء والتخلق بها، ويشير ابن القيم إلى حقيقة الإنسان بقوله: "فإن الله تعالى خلقه في علم الابتلاء والامتحان من مادة ضعيفة فهي عرضة للآفات، وركبه تركيباً معرضاً لأنواع من الآلام"(1) فالآلام التي يقصدها ابن القيم هي الآلام المتولدة عن الدوافع كألم الجوع وألم العطش، فهذه خلقت في الإنسان، وهي ما توجب عليه أن يتحرك ليدفع هذه الآلام المتولدة عن الدافع، "فإن هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التي لم يخلق منفكاً عنها فهي كالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والغم"(2).

ويشير ابن القيم إلى ما ركب الله تعالى عليه الإنسان، وهي التي يسميها الأخلاط الأربعة التي إذا امتزجت مع بعضها أحدثت نوعاً من التفاعل يبغي بعضها على بعض بحسب الكمية والكيفية، وهذا الإشارة دقيقة من

(1) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج1، ص185.

(2) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج1، ص185.

د. محمد خالد السميري

ابن القيم، فيقول: "وركبه تركيباً معرضا للآلام، وجعل فيه الأخلاط الأربعة التي لا قوام له إلا بها، ولا يكون إلا عليها، وهي لا محالة توجب امتزاجاً وتفاعلاً، يبغي بعضها على بعض....ثم ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة ما يوجب حركته الدائبة، وسعيه في طلب ما يصلحه، ودفع ما يضره"[1]، فيتضح أصل تركيب النفس الإنسانية في فكر ابن القيم ونظرته للإنسان بأنها تمتزج فتحدث سلوكاً ينشأ عند الفرد، وهي على أربعة:

أ. **الآلام** التي تتولد عن الدوافع، كألم الجوع، وألم العطش، وألم التعب، فهي ألم بالنسبة لمن تنزل به، وهناك من يحتمل قليل هذا الألم، ومنهم من لا يحتمله، والبشر بحسب قواهم وقدرتهم.

ب. **القوى**، ويقصد بها هنا القوى البدنية والنفسية.

ج. **الشهوة**، وهي التي أشار إليها بشهوة البطن والفرج، فما من إنسان إلا وبه شهوة نحو عمل من الأعمال، أو غاية يصل إليها، فالطعام هو في حد ذاته شهوة البطن، والمنكح هي شهوة الفرج، وكلها تحافظ على بقاء النوع الإنساني.

(1) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج1، ص185.

د. محمد خالد السميري

د. **الإرادة**، وهي التي يعنيها ابن القيم فيما أشار إليه بإرادة العمل والسعي له، وأصله المحبة.

ويشير ابن القيم إلى ذلك بقوله: "ولما خلق الإنسان في ابتداء أمره ناقصاً لم يخلق فيه إلا شـــهوة الغذاء الذي هو محتاج، إليه فصـــبره في هذه الحال بمنزلة صـبر البهائم، وليس له قبل تمييزه قوة صـبر الاختيار، فإذا ظهرت فيه شـهوة اللعب استعد لقوة الصـبر الاختياري على ضـعفها فيه، فإذا تعلقت به شهوة النكاح ظهرت فيه قوة الصبر، وإذا تحرك سلطان العقل وقَويَ استعان بجيش الصـــبر، ولكن هذا الســـلطان وجنده لا يســـتقلان بمقاومة ســـلطان الهوى وجنده، فإن إشراق نور الهداية يلوح عليه عند أول سن التمييز وينمو على التدريج إلى ســـن البلوغ كما يبدو خيط الفجر ثم يتزايد ظهوره، وكلها هداية قاصرة غير مستقلة بإدراك مصالح الآخرة ومضارها، بل غايتها تعلقها ببعض مصالح الدنيا"[1].

ومن هنا بدأت الأخلاق تنشـــأ شـــيئا فشـــيئا لدى الإنســـان حتى أحدثت ســـلوكا يمكن الحكم عليه وتقييمه من خلال ذلك الســـلوك الظاهر، وذلك

(1) ابن القيم، عدة الصابرين، ص23.

د. محمد خالد السميري

من خلال قوى خلقها الله سبحانه وتعالى في النفس البشرية وهي الداعية إلى نشوء الأخلاق لديه، وهي مرحلة نمو الأخلاق بحسب المرحلة العمرية التي يكون فيها.

وتعد قوى النفس الإنسانية من جملة المؤثرات في الأخلاق من حيث الحركة (الفعل) والإرادة (الدافع) التي تصدر عنها، من خلال تفاعلات داخل الجسم المادي، "حيث إن التقسيم لقوى النفس رغم أصله الإغريقي إلا أنه وجد أرضية في الفكر الإسلامي، خاصة في نصوص القرآن الكريم، حيث يذكر لنا القرآن الكريم نفوسا ثلاثة يمكن أن يدل تصنيفها على فطرتها وسلوكها"[1]، وتتشكل هذه القوى في الشخصية الإنسانية حيث يصدر عنها السلوك، ويكشف السلوك عن نوع هذه القوة التي حركت على الفعل، وتسمى هذه القوى في علم النفس:

1- **الإرادة الإنسانية:** "وهي قوة الرغبة والاختيار التي توجه الإنسان نحو قصد معين، وهي قوة باعثة يتولد منها الميل إلى الشيء أو النفور

(1) العاني، نزار، الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي، ص71.

د. محمد خالد السميري

منه، وتتجسـد في قوتين: قوة الغضـب، وقوة الشـهوة"[1]، وهي إرادة داخلية تحث الشـخصية الإنسـانية على الميل إلى ما تريده النفس من جلب خير أو دفع شر، وهي المتعلقة بالقوة الغضبية التي فيها الإقدام أو الإحجام عن الشـيء، والقوة الشـهوية التي فيها الحث على جلب المنافع.

2- **الغريزة البشرية**: "وهي سلوك فطري، وتشمل تلك الأفعال المعقدة التي تحدث لأول مرة من غير خبرة سـابقة، والتي ترمي إلى ما فيه مصلحة الفرد والاحتفاظ بنفسه"[2]، وهي المتعلقة بالغرائز الأولية أو الدوافع الأولية في النفس البشـرية وهي غريزة الطعام والشـراب والنكاح.

ويشير ابن القيم إلى القوى التي تركب منها الإنسان فيقول: "فالله سبحانه اقتضـت حكمته أن ركب الإنسـان على طبيعة محمولة على قوتين: غضـبية وشـهوية، وهي الإرادية، وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس

(1) بوذينة، عمر، والمري، راشد، مكونات الطبيعة الإنسانية، ص333.

(2) قنديل، أمين، أصول علم النفس، ج2، ص144.

د. محمد خالد السميري

وصفاتهما، وهما مركوزتان في جبلة كل حيوان"[1] بمعنى أن الإنسان ركبه الله تعالى على القوة الإرادية المحركة التي تشمل القوة الغضبية التي بها يقدم ويحجم، والقوة الشهوية وهي الغرائز المودعة في الإنسان لاستمرار بقائه وحياته، ويفصل في هاتين القوتين وعملها، "فبقوة الشهوة والإرداة: يجذب المنافع إلى نفسه، وبقوة الغضب: يدفع المضار عنها، فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه: تولد منها الحرص، وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه: تولد منه القوة والغيرة، فإذا عجز عن ذلك الضار: أورثه قوة الحقد، وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه، ورأى غيره مستبدا به: أورثه الحسد، فإن ظفر به: أورثته شدة شهوته وإرادته: خلق البخل والشح، وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء، ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعملها فيه: أورثه ذلك العدوان، والبغي والظلم، ومنه يتولد: الكبر والفخر والخيلاء، فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب"[2].

(1) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص298.

(2) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص298.

د. محمد خالد السميري

وتحرك هذه القوى على السلوك الذي ينشأ عنه الخلق، وبحسب قوة وغلبة هذه القوة على الإنسان فإنه يصدر منه سلوك يكشف عن تأثير القوة في أخلاق الإنسان، وهي من المؤثرات الكبرى في أخلاق الإنسان، وتتحد فيما بينها؛ لتولد وتدفع الإنسان إلى أن يرتكب الظلم العدوان بفعل اتحاد القوة الشهوية التي لم تنضبط، وبالتالي فإنها أورثته الظلم والحيازة لكل المنافع مع القوة الغضبية التي أورثته العدوان؛ ليحصِّل المنافع بأي طريقة وأسلوب.

وتعد الإشارة إلى الإرادة في نظر ابن القيم أنها هي التي تحرك الإنسان على ما فيه نفعه وجلبه، والابتعاد عن ما فيه ضره ودفعه، ولكن هذا الدفع والجلب يكون بقدر معين، وتضبطه القوة المفكرة التي "أودعها الله تعالى وأمره باستعمالها فيما يجدي عليه النفع في الدنيا والآخرة"[1]، فالقوة المفكرة هي التي أودعها الله تعالى في الإنسان لتضبط حركة القوة الشهوية والغضبية، "ولولا القوة المفكرة ما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع المفاسد"[2]، فالضابط الذي يكبح جماح القوى الأخرى هي القوة

(1) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص406.

(2) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص406.

د. محمد خالد السميري

المفكرة التي تسعى إلى تحصيل المنافع والمصالح للإنسان، ودفع المضار والمهالك عنه.

وتتحد هذه القوى في نظر ابن القيم وهي التي يسميها النفوس وتستعين فيما بينها على ضبط حركة القوى، "ولما كانت النفس المعدية بمنزلة حيوان عاد وحشي وكل جسم يموت فلا بد أن تتصل به هذه النفس وتغذيه بخلاف النفس المفكرة التي محلها الدماغ، وبخلاف النفس الغضبية التي محلها القلب، فالنفس المفكرة تستعين بالنفس الغضبية على تلك النفس الحيوانية العادية الوحشية، فاقتضت حكمة الخالق سبحانه أن وصل بين محل هذه الأنفس الثلاثة ليذعن بعضها لبعض"[1]، فهذه القوى تستعين ببعضها بطريقة معقدة التركيب؛ لتصل بالإنسان إلى ما فيه مصلحته في الدنيا والآخرة، وتبعده عن ما فيه مفسدته في الدنيا والآخرة.

وأشار إشارة دقيقة في أن القوى لها محل تنطلق منه في جسم الإنسان، والتي تعد المحركات التي تحرك الإنسان إلى الجلب والدفع باستخدام قوة تضبط حركة هذه القوى، "فأنت تجد فيك نفساً حيوانية تطلب الطعام

(1) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص369.

د. محمد خالد السميري

والشـراب، ونفسـاً مفكرة سـلطانها على التصـور والعلم والشـعور، ونفسـاً غضبية سلطانها على الغضب والإرادة، وتضرب كل واحدة منها فيما جعلت إليه، وبعضـــها عون لبعض، فمحل النفس الحيوانية الكبد، ومحل المفكرة الدماغ، ومحل الغضـــبية القلب"[1]، فالنفس الحيوانية وهي الغريزة المودعة في الإنســـان تطلب الطعام والشـــراب وما فيه قوام النفس البشـــرية، والنفس المفكرة تضـبط حركة الطعام والشـراب بحيث لا يتناول ما يفسـد الجسـد وينهكه وما في ضـرر عليه، وبالقوة الغضـبية تحرك الإنسـان على جلب تلك المطاعم والمشارب.

ويخلص الحديث عن القوى في نظرة ابن القيم إلى أنها ثلاث قوى وتتحد هذه القوى مع بعضها بعضا وتضبط حركة تلك القوى القوة المفكرة، وهذه القوى هي:

1- **القوة الشـــهوية:** ومحلها الكبد، وهي الغرائز المودعة في الإنســـان، والتي جبلت في خلق كل المخلوقات وبها يجذب المنافع إلى نفســـه، ومنها تولدت أخلاق إذا قصرت أو غالت انحرفت عن مسارها.

(1) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، 369.

د. محمد خالد السميري

2- **القوة الغضبية:** ومحلها القلب، التي من خلالها يدفع الشخص عن نفسه المضار والمكاره، وإذا استعملت في غير محلها ولدت أخلاقا وهي العدوان والظلم والبغي.

3- **القوة المفكرة:** ومحلها الدماغ، هي التي تضبط حركة القوة الشهوية والقوة الغضبية، وتخفف من حدتهما.

ويرى الغزالي أن قوى النفس تنقسم إلى أقسام متعددة، وتحت كل واحدة منهما تفصيل لهذه القوى وتأثيرها في أخلق الإنسان فهي قوى حيوانية وقوى إنسانية، فالقوى الحيوانية: تنقسم إلى قسمين:

1- **القوى المحركة:** "والمحركة إما أن تكون محركة على أنها باعثة على الفعل، أو على أنها فاعلة، والباعثة: إما أن تكون على جذب النفع أو على دفع الضر، والباعثة على جذب النفع هو الذي يعبر عنه بالشهوة وهو الذي اذا ارتسم في الخيال معنى يعلم أنه خير عنده، أو يظن يبعث القوة الفاعلة على جذب ذلك النفع، وأما الباعثة على دفع الضر فهي التي يعبر عنها بالغضب وهي القوة التي إذا ارتسم في الخيال ما يعلم أو يظن أنه يضر تبعث على تحريك يدفع به ذلك

د. محمد خالد السميري

الضرر أو المؤذي طلبا للانتقام والغلبة"[1]، فتنشأ قوة الشهوة وهي التي فيها جذب النفع للشخصية الإنسانية، وقوة الغضب التي من خلالها يدفع الضر عن نفسه.

وتوصف القوى المحركة "على أنها فاعلة: فهي قوة تنبعث في الأعصاب والعضلات من شأنها أن تشنج العضلات فتجذب الأوتار والرباطات المتصلة بالأعضاء إلى نحو جهة المبدأ أو ترخيها فتصير الأوتار والرباطات الى خلاف جهة المبدأ، و هذه القوة هي التي يعبر عنها بالقدرة"[2]، و هذه القوة هي القدرة على الفعل من حيث البنية الجسدية وحركة الجسد في الجذب أو الدفع، وذلك من خلال حركات تحرك الجسد إلى الطلب والنزوع من خلال تحركها وتأثيرها في أعضاء الجسد الإنساني.

2- **القوى المدركة:** "وهي منقسمة بالقسمة الأولى قسمين:

أ- **مدركة من ظاهر**: "والمدركة من الظاهر تنقسم خمسة أقسام وهي الحواس الخمس فنذكرها ونذكر كيفية تأديتها الى الحس

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص37.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص37.

د. محمد خالد السميري

المشترك"[1]، فهذه القوى تشترك في تحريك الشخصية الإنسانية فيما تلتئم حركتها، وهي قوى فرعية تشترك في نظامها مع القوى الأخرى وتوصل إليها من خلال الحواس الخمس وهي اللمس والشم والذوق والبصر والسمع.

ب- **مدركة من باطن**: وهي القوى النا شئة عن الإدراك الباطني للإنسان وهي أقسام[2]:

- **القوة المصورة:** وهي التي أشار إليها بقوله: "إنك تبصر القطر النازل خطا مستقيما والنقطة الدائرة بسرعة خطا مستديرا كله على سبيل المشاهدة لا على سبيل التخيل"[3] والمعنى ما يرى في الظاهر عيانا، وما يستطيع الإنسان أن يستدل عليه من خلال النظر المجرد.

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص41.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص44.

(3) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص45.

د. محمد خالد السميري

- **القوة الخيالية:** "فإنا نعلم أنا إذا رأينا شـيئا وغبنا عنه أو غاب عنا بقيت صـورته فينا كأنا نشـاهدها ونراها، فهي تحفظ مثل المحسوسات بعد الغيبوبة"[1]، وهي المتخيلة في الذهن والحاضرة فيه وما ينقدح في الذهن صـورته عند ذكره أو تذكره، وليس فيها تفصيل وإضافة كما في قوة التخيل في النقطة الخامسة.
- **القوة الوهمية:** " فإن الحيوانات ناطقها وغير ناطقها تدرك من الأشخاص الجزئية المحسوسة معاني جزئية غير محسوسة، كما تدرك الشـاة أن هذا الذئب عدوها، والعداوة والمحبة غير محسـوسـتين، وتحكم عليهما كما تحكم على المحسـوس"[2]، وهي كل ما ليس محسوسا غير أنه حاضر في الذهن أنه حسن أو قبيح، نافع أو ضار.
- **القوة الحافظة:** "فإنا نعلم أنا إذا أدركنا المعاني الجزئية لا تغيب عنا بالكلية، فإنا نتذكرها ونستحضرها بأدنى تأمل، فعلمنا أن لهذه

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص46.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص46.

د. محمد خالد السميري

المعاني خازنا يحفظها، فتلك هي الحافظة ما دامت باقية فيها، فإذا غابت واستعادت فهي الذاكرة"[1]، وهي المحفوظات الموجودة في الذاكرة، ويمكن استعادتها في الوقت الذي يحتاج فيه الإنسان إلى تذكرها واسترجاعها.

- **قوة التخيل**: "فإنا نعلم أنا يمكننا أن ندرك صورة ثم نفصل ونركب ونزيد وننقص وندرك معنى فنلحقه بالصورة"[2]، فهي مركبات وعمليات دماغية تدفع الشخصية الإنسانية إلى الزيادة والإنقاص من المعنى الحاضر في الذهن.

ويشير الغزالي إلى أن الأخلاق أي السلوك يصدر عن إحدى القوى المسيطرة على الإنسان والتي تكونت منها، فيقول "فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل"[3]، فمنشأ الأخلاق من هذه القوى

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص47.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص47.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص53.

د. محمد خالد السميري

الأربعة، ثم يفصل الغزالي في معنى هذه القوى وما يصدر بسببها من سلوك على النحو الآتي:

1- **قوة العلم:** "فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصـــدق والكذب في الأقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا صـــلحت هذه القوة حصـــل منهـا ثمرة الحكمـة، والحكمـة رأس الأخلاق الحسنة"[1]، وهي التي من خلالها يتعلم الإنسـان ويدرك الحق من الباطل والحسن من القبيح، مما يؤدي ذلك إلى تولد الحكمة التي أشار إليها وهي رأس الأخلاق الحسنة والطيبة.

2- **قوة الغضب:** "فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضـــيه الحكمة"[2]، وهي قوة تدفع الإنســـان إلى ما تقتضـــيه حاجة الإنسان، فإذا خرجت عن حدها فإنها تصبح مذمومة.

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص54.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص54.

د. محمد خالد السميري

3- **قوة الشهوة:** "حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع"[1] فالعقل والشرع هما اللذان يحكمان هذه الشهوة ويكبحان جماحها بحيث تتحكم فيها بما يصلح من جلب النافع ودفع الضار.

4- **قوة العدل:** "فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع"[2]، وبقوة العدل يتحكم الإنسان في كل ما سبق من القوى ويضبط حركتها ويوجهها إلى ما فيه صلاحها واجتناب هلاكها وفسادها.

وأما القوى الإنسانية فإن الغزالي يرى أن "النفس الانسانية الناطقة تنقسم قواها أيضا إلى قوة عاملة (عملية)، وإلى قوة عالمة (نظرية)، وكل واحدة من القوتين تسمى عقلا باشتراك الاسم"[3]، فالإنسانية هي التي تتعلق بالفكر والفعل، وهي كما يأتي:

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص54.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص54.

(3) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص49.

د. محمد خالد السميري

1- **فالقوة العاملة:** "قوة هي مبدأ تحريك لبدن الانسـان إلى الأفاعيل الجزئية الخاصة بالرؤية على مقتضى آراء تخصها اصطلاحية"[1]، وهي أفعال تمارسها الشخصية الإنسانية، واستجابات سلوكية لما يصــدر عنها، وتتحكم بالبدن من حيث التصــرف والنزوع إلى الأشياء التي يريدها.

2- **القوة العالمة أو النظرية:** "فهي القوة التي بالقياس إلى الجنبة التي فوقها لتنفعل وتســتفيد منها وتقبل عنها، فكأن للنفس منا وجهين وجه إلى البدن ويجب أن يكون هذا الوجه غير قابل البتة أثرا من جنس مقتضــى طبيعة البدن، ووجه إلى المبادئ العالية والعقول بالفعل"[2]، وهي القوة القِيَمية التي توجه إلى محاســن الأمور وهي منطبعة في النفس، فالقوة النظرية هي الجزء الباطن للشـخصـية الإنسـانية، والعاملة هي الجزء الظاهر من الشـخصـية الإنسانية والتي يظهر منها الحركات والاستجابات السلوكية.

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص49.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص50.

د. محمد خالد السميري

ويخلص الحديث عند الغزالي أن الإنسان مكون من عدة قوى تتحكم فيها وتدفعها وتبعثها على القيام بمصالحها وما يجلب لها النفع ويدفع عنها الضر كقوة الشهوة والغضب، وهي التي تسمى بالإرادة فهي قوة محركة للإنسان، مودعة في جسده تحركه إلى ما فيه قوامه وا ستمرار حياته، وباتحاد جميع القوى السابق ذكرها وبدينامية معقدة لا يعرف صفتها ولا حركتها تتكون الشخصية الإنسانية.

ويعد الأصفهاني من علماء التراث الإسلامي الذين تكلموا في القوى التي تتكون منها الشخصية الإنسانية وتتأثر بها ويصدر عنها السلوك الإنساني، حيث أشار إلى القوى المتعددة التي تكمن في الإنسان وتتفاعل بقوله: "قد جعل اللهْ للإنسان خمس قوى، يدل على وجودها فيه ما يظهر من تأثيراتها[1]:

1- **قوة الغذاء**: و بها النشأة والتربية والولادة، وهي القوة الغاذية للنفس البشرية، والتي تدفع الإنسان إلى الطعام والشراب.

2- **قوة الحس**: وبها الإحساس واللذة والألم.

(1) الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص73.

د. محمد خالد السميري

3- **قوة التخيل:** وبها تصور أعيان الأشياء بعد غيبوبتها عن الحس.

4- **قوة النزوع:** و بها يكون الطلب للموافق والهرب من المخالف، والرضا والغضب والإيثار والكراهة.

5- **قوة التفكر:** وبها يكون النطق والعقل والحكمة والروية والتدبير والمهنة والرأي والمشورة.

وتعد هذه القوى هي التي تدفع الإنسـان إلى الغذاء والحس والتخيل والنزوع طلبا وهربا والتفكر في الأشـياء بحيث يصـل الإنسـان إلى القدر المطلوب من جلب ما ينفع ودفع ما يضـر، وهـذه "القوى الروحـانيـة متعـاونـات في إدراكهن لرسـوم المعلومـات، فـإن الخيـال يتصـور عن المحسوس فتبقى فيه صورته الروحانية فينتقش بها كما تنقش الشمع بصورة الختم، ثم يأخذها الفكر، فيميز بعضـها عن بعض بنور العقل، فيبحث عن خواصـها ومنافعها، ومضـارها، ثم يؤديه إلى القوة الحافظة، فإن أراد إبرازه قولًا سلط عليه القوة الناطقة، فيعبر عنه باللسان، وإن أراد إبرازه فعلًا سلط عليه القوة العاملة فتوجده الجوارح"[1]، فهذه المراحل التي تمر بها مرحلة

(1) الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص76.

د. محمد خالد السميري

الإدراك أو التي تعتبر مظلة القوى كلها التي تنتظم تحتها بحيث تسير خطوة خطوة حتى الوصول إلى السلوك الإنساني الذي يكشف عن حركة تلك القوى مع بعضها وتعاونها حتى وصلت إلى المعنى المراد والكيفية النهائية التي ظهرت.

ويشير الأصفهاني إلى أن هذه القوى لها مكان تنطلق منه وتسكنه وتتمركز فيه، "فقوة الفكرة ومسكنها وسط الدماغ، والخيالية ومسكنها مقدم الدماغ، والحافظة ومسكنها مؤخر الدماغ،"[1]، فالإشارة إلى موطن كل قوة يعد من القضايا التي تشير إشارة دقيقة إلى أن علماء التراث الإسلامي اهتموا اهتماما بالغا في العلوم التي تحدث عن التكوين البيولوجي للإنسان، وعلم التشريح للدماغ، حتى وصلوا إلى هذه النتيجة التي تشير إلى أن الفكرة مسكنها وسط الدماغ، والخيالية مسكنها مقدم الدماغ، والحافظة مسكنها مؤخره.

ويتحدث ابن حزم عن القوى الإنسانية في معرض حديثه عن مداواة النفوس، إذ لم يشر إشارة عميقة كما أشار من قبله في الحديث عن القوى

(1) الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص77.

د. محمد خالد السميري

المودعة في الشخصية الإنسانية، وإنما أشار إلى أن الأفعال تتولد من القوى المتنوعة المودعة في الإنســـان، فيقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّازِعَات : ٤٠ - ٤١] وهذا جامع لكل فضـــيلة؛ لأن نهي النفس عن الهوى هو ردعها عن الطبع الغضـبي وعن الطبع الشـهواني؛ لأن كليهما واقع تحت موجب الهوى، فلم يبق إلا اســتعمال النفس للنطق الموضـــوع فيها الذي به بانت عن البهائم والحشـرات والسـباع"[1]، فمن خلال الإشـارات التي أوردها ابن حزم فإنه يشير إلى أن الشخصية الإنسانية فيها ثلاث قوى متعددة ينشأ عنها الأخلاق أي السلوك الصادر عن الإنسان، وهي القوة الغضبية التي فيها الغلبة والقهر والقوة، والقوة الشـهوية التي تحرك الإنسـان على جلب المنافع واسـتمرار بقاء الإنسـان، والقوة الناطقة التي تضـبط حركة وسـير تلك القوى الأخرى بميزان العقل الذي ميز الله تعالى به الخلق عن غيرهم من الحيوانات.

ويربط ابن حزم القوة الغضبية والنهي عنها "بقول رسول الله صلى الله عليه و سلم للذي ا ستو صاه **(لا تغضب)**[2] وقوله صلى الله عليه و سلم: **(لا**

(1) ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفس، ص19.

(2) البخاري، صحيح البخاري، حديث: 6116.

د. محمد خالد السميري

يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[1] جامعان لكل فضيلة؛ لأن في نهيه عن الغضب ردع النفس ذات القوة الغضبية عن هواها، وفي أمره عليه السلام أن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ردع النفس عن القوة الشهوانية وجمع لأزمة العدل الذي هو فائدة النطق الموضوع في النفس الناطقة"[2]، فالقوة الغضبية حاملة للنفس على استجابات سلوكية لا تحمد، والنفس الناطقة هي التي تضبط حركة النفس والقوة الغضبية والشهوية وتردعها عن تجاوزاتها.

وأورد ابن الجوزي في ذم الهوى أن النفس الإنسانية فيها ثلاث نفوس وكل واحدة منصرفة إلى ما ترى فيه كمالاتها، "فالنفس الناطقة: محبتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل، ونفس حيوانية عصبية فمحبتها منصرفة نحو القهر والغلبة والرياسة، ونفس شهوانية فمحبتها منصرفة إلى المآكل والمشارب والمناكح"[3]، فالنفس الشهوية فيها النزوع نحو الطعام والشراب والنكاح وهي الغرائز المودعة في الإنسان أي غريزة البقاء،

(1) البخاري، صحيح البخاري، حديث:13.

(2) ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص19.

(3) ابن الجوزي، ذم الهوى، ص296.

د. محمد خالد السميري

والحيوانية التي فيها أخلاق السباع وتسعى للقهر والغلبة والرياسة، وكلها أخلاق مادية صرفة، أما النفس الناطقة فهي التي فيها الفضائل وتدعو إليها وتحث على إتيانها، وهي التي توجه وترشد حركة النفس الحيوانية والنفس الشهوية، وهذا يعني أن النفس فيها الفطري وفيها المكتسب.

ويعتبر ابن الجوزي أن النفوس لها تمام أحوال لا تكتمل إلا بها، "وأتم أحوال النفس الشهوانية وجودها مع شهواتها من غير منغص، وأتم أحوال النفس الحيوانية وجود غرضها من القهر والرياسة، وأتم أحوال النفس الناطقة وجودها مدركة لحقائق الأشياء بالعلم والمعرفة"(1)، ويرى أن النفس الناطقة هي التي توجه النفوس الأخرى والتي تكبح جماحها عن المضي في شهواتها ومرادها، فيقول: "النفس الناطقة لا يستأسرها الهوى، فإن أمالها طبعها أقامها فكرها وانتاشها من يده عقلها وفهمها؛ لأنها تتفكر فيما قد نابها فتتلمح منتهاه وترى غايته"(2)، فلا تستطيع النفوس الأخرى مع حركتها وديمومتها أن تتغلب على النفس الناطقة العاقلة التي توجه حركة البدن باعتدال وانتظام.

(1) ابن الجوزي، ذم الهوى، ص309.

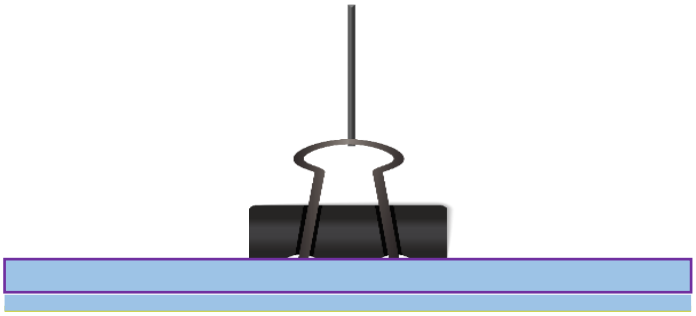
(2) ابن الجوزي، ذم الهوى، ص310.

د. محمد خالد السميري

ويلحظ من التقسيم لقوى النفس الإنسانية لدى علماء التراث الإسلامي أن هناك امتزاجا في التقسيم بين الرؤية الأفلاطونية والرؤية الأرسطية، "فأفلاطون يقول بتقسيم النفس إلى ثلاث قوى هي: الشهوانية، والغضبية، والعاقلة، وأما أرسطو فقال بثلاثة أنواع من الأنفس هي: النباتية ووظيفتها التغذي والنمو والتوليد، والنفس الحيوانية ووظيفتها الحس والتخيل والحركة بالإضافة إلى وظائف النفس النباتية، والنفس العاقلة التي تختص بالإنسان"[1]، حيث إن الغزالي وافق ابن سينا في كثير من تقسيماته بحيث لو قورنت مع بعضها لكان التشابه كبيرا بينهما، وفي معرض حديثه عن "قوى النفس الحيوانية والإنسانية المحركة والمدركة، فإن الغزالي كان مقلدا ينقل عن الفارابي وابن سينا، وبخاصة ابن سينا الذي ينقل عنه معظم آرائه نقلا يكاد يكون حرفيا، ويمكن ملاحظة ذلك إذا ما قارنَّا آراء الغزالي عن قوى النفس الحيوانية والإنسانية في كتاب معارج القدس، بأقوال ابن سينا في كتابي النجاة وأحوال النفس"[2].

(1) نجاتي، محمد عثمان، الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين، ص27.

(2) نجاتي، محمد عثمان، الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين، ص166.



المبحث الخامس

أسباب انحراف الأخلاق

المبحث السادس: أسباب انحراف الأخلاق

يعد السلوك الإنساني من المحركات الهامة للفرد نحو جذب المنافع ودفع المضار، وذلك من خلال الدوافع الفطرية والمكتسبة والإيمانية، ويحصل الانحراف في الأخلاق نتيجة أسباب متعلقة بالطبيعة الإنسانية والبيئة والتعليم، حيث "إن طبيعة الانحرافات تتمثل في خروج أنماط معينة من السلوك على المعايير في مجتمع معين وزمن معين"[1]، فالانحراف هو نمط يظهر جليا على الإنسان من حيث السلوك الذي تقوم به، ويأتي الحديث عن أسباب الانحراف وفق الآتي:

أولا: الجهل

يعتبر الجهل من أكبر عوامل انحراف الأخلاق لدى الشخصية الإنسانية، وهو أساس الانحراف في الدوافع الفطرية والمكتسبة والإيمانية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾ [النِّسَاء: ١٧] أي أن كل من عصى ربه جل وعلا فهو جاهل، ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّا

(1) أحمد، سمير نعيم، الدراسة العلمية للسلوك الانحرافي، ص25.

د. محمد خالد السميري

عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ [الأحزاب : ٧٢] ويشير ابن القيم إلى ذلك بقوله: "ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد، وكل ضرر يلحق العبد في دنياه وأخراه فهو نتيجة الجهل، وإلا فمع العلم التام بأن هذا الطعام مسموم من أكله قطع أمعاءه في وقت معين، لا يقدم على أكله"(1)، فالجهل أول ما يؤدي إلى انحراف الدوافع، وهو أصل كل فساد للإنسان في دنياه وآخرته، والضرر الذي يلحق بالإنسان إنما يلحقه بسبب عدم تقديره للأمور التي يقدم عليها، ومعرفة النافع من الضار، وقد ضرب ابن القيم مثالا عن الدافع الفطري وهو دافع الطعام وكيف ينحرف الإنسان إلى تناول الطعام الذي يضر ولا ينفع ويؤدي إلى هلاك الإنسان.

ثانيا: انحراف العقيدة

تعد العقيدة الإسلامية من الركائز التي تضبط أخلاق الإنسان، والمسلم هو الذي يمتثل في أخلاقه ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والاعتقادات الفاسدة ترث الإنسان الظلم والجهل والبغي والعدوان، فالمشرك بالله تعالى يرتكب ما يحلو له من غير رقيب عليه؛ لأن

(1) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج1، ص242

د. محمد خالد السميري

الضمير الداخلي لم يفعل لديه في أنه مراقب من الله تعالى ومحاسب على كل حركة وفعل يفعله، وعلى النقيض من ذلك فإن المسلم الموحد يرى أنه لا يتحرك حركة إلا ويعلم أنه سيحاسب عليها وسيجزى عليها، لأنه قد فعل الضمير الداخلي لديه، قال الله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَت : ٤٦] والقرآن الكريم يزخر بالآيات التي توضح أن انحراف العقيدة يؤدي على انحراف الأخلاق لدى الفرد.

رابعا: انحراف العقل واتباع الهوى

يعتبر انحراف العقل واتباع الهوى من أسباب انحراف الأخلاق؛ وذلك لانعدام المعايير والمحكات التي يتم تقييم الخلق بناء عليها، و قد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص : ٢٦] وقال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القَصَص : ٥٠] حيث يعارض العقل الامتثال للشرع في الأمور التي

د. محمد خالد السميري

جاء بها الشرع، ولا يقبلها بسبب الجهل بحقيقتها وعدم الإقرار بها، "فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة، والدال على مصالح الدنيا والآخرة، ومن عدل عنه فقد ضل سواء السبيل"[1].

فالإنسان ينحرف في دوافعه لانحرافه عن المسار الذي وضعه الشرع لعقل الإنسان في الاهتداء إلى النافع والمصالح والابتعاد عن الضار والمفاسد، فإذا ما قدم رأيه على الشرع فإنه يضل عن المراد الذي أراده الله تعالى، ويشير الأصفهاني إلى مثل ذلك فيقول: "فالعقل يرى ما يرى بحجة وعذر، والهوى يرى ما يرى بشهوة وميل."[2]، فضعف العقل عن مواجهة الهوى وتدبير الأمور يسوق الإنسان إلى اتباع الهوى، ويرى كل شيء بتأثير الشهوة والميل، وعلى ذلك فإن السلوك ينحرف بانحراف الدافع المحرك له.

خامسا: انحراف الفطرة

حيث يعد انحراف الفطرة من أقوى العوامل المؤثرة في انحراف الأخلاق لدى الفرد، فالفطرة السوية تضبط دوافع السلوك وتوجهه نحو

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص58-59.

(2) الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص93.

د. محمد خالد السميري

الخير، والفطرة والمنحرفة تحرف الشخصية الإنسانية إلى السلوك المنحرف وتوجهه نحو الشر، قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: (**يُصَلَّى علَى كُلِّ مَوْلُودٍ مُتَوَفًّى، وإنْ كانَ لِغَيَّةٍ، مِن أجْلِ أنَّه وُلِدَ علَى فِطْرَةِ الإسْلَامِ، يَدَّعِي أبَوَاهُ الإسْلَامَ، أوْ أبُوهُ خَاصَّةً، وإنْ كَانَتْ أُمُّهُ علَى غيرِ الإسْلَامِ، إذَا اسْتَهَلَّ صَارِخًا صُلِّيَ عليه، ولَا يُصَلَّى علَى مَن لا يَسْتَهِلُّ مِن أجْلِ أنَّه سِقْطٌ فإنَّ أبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنْه، كانَ يُحَدِّثُ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ، ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنْه: {فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} الروم: 30 الآيَةَ.)**[1] أي أن الانحراف للأخلاق يحصل بفعل التغيير لها عن مسارها التي وضعت لأجلها، ويرى الأصفهاني أن الفطرة تلعب دورا هاما في تشكيل دوافع الشخصية الإنسانية فيقول: "فإن الناس مجبولون على طبائع لا سبيل إلى تغيير ها، فمنهم أخيار بالطبع، ومنهم أشرار بالطبع"[2] أي أن الفطرة تلعب دورا كبيرا في الأخلاق الإنسانية

(1) البخاري، صحيح البخاري، حديث:1385.

(2) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص98.

من حيث الخير أو الشـر، وإلى ذات المعنى أشـار الغزالي في معرض حديثه عن تأثير الفطرة على السلوك الإنساني فيقول: "وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولا، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا، ثم إذا اجتمعا اسـتعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصـفة الشـيطانية"[1]، فالصـفات والسـلوك الذي يكتسـبه الإنسـان نابع من داخله، وتوجهه الفطرة التي فطر عليها، فالإنسـان بطبيعته فطر على صـفات بهيمية وسـبعية تحركه إلى إبقاء نوعه، وتعزز ذلك الصـفات الشـيطانية التي تسـيطر على الإنسان، ولا ترتدع إلا بالصفات الملائكية التي وضعت فيه.

سادسا: سيطرة القوة الشهوية على الإنسان

حيث تعتبر القوة الشـهوية من القوى القديمة الأولية في الإنسـان، أي أول قوة خلقت فيه، ويرى الغزالي أن قوة الشهوة قوة مسيطرة على الإنسان، فيقول: "وأما القوة الشهوية ففيها مضرة ومنفعة، وهي أصعب إصلاحا من سائر القوى؛ لأنها أقدم القوى وجودا في الإنسان، وأشدها به تشبثا، وأكثرها منه تمكنا"[2]، وتسـيطر القوة الشـهوية على الشـخصـية الإنسـانية بحيث

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص16.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص79.

يستجيب لها في إشباع رغباته الفطرية التي يستدعيها، وتتمكن منه حتى لا يقدر على ضبطها، وبالتالي تحكم سيطرتها عليه.

سابعا: ضعف سيطرة الدافع الإيماني

وقد أشار ابن القيم إلى أن الشهوة والمال يتفقان فيقول: "فتتفق قوة داعي الشهوة والمال، وضعف داعي الإيمان، فيجيب داعي الشهوة والمال"[1]، أي أن قوة الشهوة وحب المال تتفقان فيضعفان داعي الإيمان ودافعه، فيستجيب الفرد لداعي الشهوة والمال ويؤثره على الدافع الإيماني الذي يضبط الدوافع الأخرى؛ بسبب ضعف داعي الإيمان في قلب الإنسان.

ثامنا: سيطرة القوة الغضبية على الإنسان

مما يدفعه إلى القيام بسلوك مضاد للسلوك المعتدل الحميد، فيشير الغزالي إلى أن "الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان"[2]، فاستحكام الغضب على الفرد يؤدي إلى انحراف في دوافع السلوك الإنساني، ويؤدي ذلك إلى الحقد والحسد والغل والبغض وكل سلوك ذميم.

(1) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج1، ص267.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص164.

د. محمد خالد السميري

تاسعا: انحراف القلب وعدم تمييزه بين الحق والباطل

وجاء هذا حديث يرويه حذيفة بن اليمان أن النبي صـــلى الله عليه وسلم قال: **(تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ عَرْضَ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ سَوداءُ ، وأيُّ قلبٍ أنْكَرَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ بيضاءُ ، حتى يصِيرَ القلبُ أبيضَ مثلَ الصَّفا ، لا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ ، والآخَرُ أسـودَ مُربَدًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا ، لا يَعرِفُ مَعروفًا ، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا ، إلا ما أُشْـرِبَ من هَواه)**[1] "ولما كان القلب هو محل العلم، والسـمع رسـوله الذي يأتيه به، والعين طليعته؛ كان ملكا على سـائر الأعضـاء، يأمرها فتأتمر لأمره، ويصـرفها فتنقاد له طائعة، بما خص به من العلم دونها، فلذلك كان ملكها والمطاع فيها"[2]، فإذا انحرف القلب عن مراده وما وضـع له فإن ذلك يؤدي إلى فساد الأخلاق، ويصدر عن الفرد سلوك غير محمود؛ لأن القلب يقود الجوارح إلى الأفعال والحركات بحسـب ما أُشـرب القلب من خير أو شر، ويرى الأصفهاني أن القلب هو المحرك الأول للإنسان، فهو مبدأ الفعل أي مستودع الدافع الذي يحرك الشـخصـية الإنسـانية على الفعل والجوارح

(1) مسلم، صحيح مسلم، حديث:231

(2) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج1، ص287.

د. محمد خالد السميري

هي الترجمان لهذه الأفعال، فيقول: "الإنسان عيناه هاد، وأذناه قمع، ولسانه ترجمان، ويداه جناحان، ورجلاه بريد، والقلب ملك، فإذا طاب القلب طاب جنوده"[1]، فإذا كان القلب صالحا فإن الصلاح ينسحب على الأعضاء التي تترجم ما في القلب من مبدأ وحركة وصلاح، وإذا كان القلب فاسدا فإن الحركة التي تظهر حركة منحرفة، وسلوك منحرف عن حد الاعتدال الطبيعي.

عاشرا: انعدام التوجيه والإرشاد:

يعد من الأسباب المهمة التي تسهم في انحراف الأخلاق لدى المسلم، وتسهم إسهاما كبيرا في تشكيل الأخلاق إما في الاعتدال وإما في الانحراف، وقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(كانَ في بَنِي إسْرائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ إنْسانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فأتَى راهِبًا فَسَألَهُ فقالَ له: هلْ مِن تَوْبَةٍ؟ قالَ: لا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فقالَ له رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذا وكَذا، فأدْرَكَهُ المَوْتُ، فَناءَ بصَدْرِهِ نَحْوَها، فاخْتَصَمَتْ فيه مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذابِ، فأوْحَى اللهُ إلى هذِه أنْ**

(1) الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص77.

د. محمد خالد السميري

تَقَرَّبِي، وأَوْحَى اللهُ إلى هذِه أنْ تَباعَدِي، وقالَ: قِيسُــوا ما بيْنَهُما، فَوُجِدَ إلى هذِه أَقْرَبَ بشِــبْرٍ، فَغُفِرَ له[1] فهذا الحديث يدل على أنَّ الفرد إذا أراد تعديل سلوكه فعليه أن يغير البيئة التي يعيش فيها.

الحادي عشر: رفاق السوء:

يســهم رفاق الســوء في انحراف أخلاق الفرد، لما يكتســبه بالتمرن والمشــاهدة من ســلوكياتهم، والتي مع الاعتياد تصــبح لديه عادة يصــعب زوالها أو تغييرها، وقد أشــار النبي صــلى الله عليه وســلم إلى ذلك فقال: **(المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ)**[2] لذلك ينبغي على الآباء والأمهات أن يتابعوا أبناءهم في صحبتهم ومعرفة من يصاحبونهم.

الثاني عشر: الجليس السوء

يؤثر الجليس في جليســه ولو بشــيء يســير، فإذا كان يحمل فكرا ملوثا أو ســلوكا منحرفا فإنه قد يؤثر في جليســه، وقد أشــار الله تعالى إلى ذلك في قوله ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ

---

[1] البخاري، صحيح البخاري، حديث:3470.

(2) أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، حديث:4833

د. محمد خالد السميري

ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ [النِّسَاء: ١٤٠] وفي إشارة أخرى من قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في تأثير الجليس على جليسه فقال: **(إِنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ، وجَلِيسِ السُّوءِ، كَحامِلِ المِسْكِ، ونافِخِ الكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ، إِمَّا أنْ يَحْذِيَكَ، وإِمَّا أنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وإِمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، ونافِخُ الكِيرِ، إِمَّا أنْ يَحْرِقَ ثِيابَكَ، وإِمَّا أنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً)**[1].

(1) البخاري، صحيح البخاري، حديث:2101



المبحث السادس

تعديل الأخلاق

المبحث السادس: تعديل الأخلاق

لا شك حين الحديث عن الأخلاق لابد من الحديث عن اكتساب الأخلاق وتعديلها، فالأخلاق منها ما هو فطري مركوز في فطرة الإنسان ومنها ما هو مكتسب، فيبقى السؤال الذي يرد على ذهن الفرد، **هل الأخلاق يمكن تعديلها أم لا؟** وهو محل بحث لدى الباحثين في علم النفس التربوي، وقد وضعوا أساليب لتعديل السلوك الإنساني، وللإجابة على هذا السؤال لابد من الرجوع إلى أصول الدين من قرآن وسنة وإلى أصل تابع وهو العقل.

ولابد من الإشارة قبل الشروع في الحديث عن تعديل الأخلاق أن الخلق نفسه كالأمانة والعدل والعفة والشجاعة والصدق هي ثابتة لا تتغير ولا تتبدل كقيمة عالية رفيعة فالأمانة هي أمانة قديما وحديثا، وإنما الحديث هو عن الإنسان نفسه هل تتعدل الأخلاق لديه أم أنها ثابتة في سلوكه لا تتعدل ولا تتبدل؟

قد دلت الأدلة الشرعية على أن السلوك يتعدل ويتبدل بوسائل متعددة، كما جاء في قول الله تعالى حين أقسم أحد عشر قسما في سورة الشمس ثم قال ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ

خَابَ مَن دَسَّـٰهَا ﴿١٠﴾ [الشَّـمْس : ٨ - ١٠] فالآية دلت على أن الخلق يتعدل ويتغير وذلك عائد إلى الإنسـان نفسـه وإلى العوامل التي تم ذكرها في التأثير على الأخلاق، فالله تعالى يشـير إلى أن التزكية للنفس هنا بفعل الإنسـان نفسـه من خلال القيام بإجراءات من شـأنها أن توصـله إلى التزكية كفعل الطاعات واجتناب المنهيات كإطار عام في التزكية.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولًا مِّنْ أَنفُسِـهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَـلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عِمْرَان : ١٦٤] وهـذه الآيـة الكريمـة تـدل على منهج الإسـلام في تعديل الأخلاق، فحين يرسـل الله تعالى الرسـول منة على خلقه جميعا فإنه سبحانه يعلم أن هناك من يصدق وهناك من يكذب، وبالتالي فإن الرسول صلى الله عليه وسلم حين يرسل إلى الأمة فإنه سيحاول ويجتهد في تبليغ الدعوة إلى الناس حتى يغير من سـلوكهم، والآية جاءت بمقدمات منهجية في الدعوة وهي في كلمة (يتلو) وتمثل المنهاج الدعوي الذي يبلغه للناس وهي مهارة الداعية، والتزكية وهي التحلي بمكرمات النفس الإنسانية والتخلي عن دسـائسـها، والحكمة تمثل الطريقة التي يتمتع بها المربي والمباشر لعملية تعديل السلوك.

وأما العقل فإنه يقر ويعترف بأن السلوك القبيح يمكن التخلي عنه سواء كان يتعلق بالعقائد أو الشرائع، فلو لم يكن ينفع فإنه ما فائدة التكليف وإرسال الرسل لدعوة الناس إلى التوحيد؟ فالعقل قائم على الاعتراف بهذا الأمر غير أن بعض المفتونين لا يقرون بذلك وجحدوا بها وأنفسهم مستيقنة بذلك.

ويشير الأصفهاني إلى تعديل أخلاق الإنسان بعبارات عظيمة فيقول: "والخُلق من الإنسان يجري هذا المجرى في أنه لا سبيل للإنسان إلى تغيير القوة التي هي السجية، وجعل له سبيلًا إلى إسلاسها، ولهذا قال الله تعالى: **(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)** ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، ولما جوَّز العقل أن يقال للعبد لم فعلتَ، ولم تركتَ، وكيف يكون هذا في الإنسان ممتنعًا وقد وجدناه في بعض البهائم ممكنًا، فالوحش قد ينقل بالعادة إلى التأنس، والجامح إلى السلاسة. لكن الناس في غرائزهم مختلفون، فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول، وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول، وبعضهم في الوسط، وكل لا ينفك من أثر القبول وإن قل"[1]. وهذا يدل على أن خلق الإنسان

(1) الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص99.

تتبدل وتتغير أما الخلق نفســه كالأمانة والعدل والعفة فإنها ثابتة لا تتغير ولا تتبدل فهي قيمة ثابتة راسخة.

وفيما يأتي وسائل لتعديل الأخلاق:

أولا: التعزيز

يمكن تعريف التعزيز في الإسلام بأنه إثابة الإنسان على الفعل الذي يقوم به ممتثلا لنصوص الوحي الإلهي وتقديم مكافأة مادية أو معنوية إما عاجلة أو آجلة، وقد جاء الإسلام بالتعزيز المعنوي والمادي بهدف تكرار السلوك من الإنسان، ونصوص القرآن الكريم زاخرة بالتعزيز، وأهم ما يمكن الحديث عنه أن الله تعالى أعد للمؤمنين الذين سلكوا المنهج القويم وتكرر سلوكهم العبادي بأن لهم الجنة، وأنه يرضى عنهم، وهو **التعزيز الآجل** الذي سيترتب لاحقا بناء على سلوك يرضاه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النِّسَاء: ١٢٤] فمن يعمل الصالحات أي يسلك السلوك الحسن يكافئ عليه بالجنة لأنه امتثل الأمر واجتنب النهي وهذا نص صريح في **التعزيز الآجل**.

وأما **التعزيز العاجل** فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النُّور: ٥٥] وفي هذا إشارة صريحة ومباشرة إلى التعزيز العاجل في الدنيا، وكما ورد أيضا في قصة موسى عليه السلام حين قالت له المرأة أن أباها يدعوه، فقال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ [القَصَص: ٢٥].

وأما **التعزيز المعنوي** فقد جاء في السنة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ومن أتى إليكم معروفًا فكافِئوه فإن لم تجدوا فادعوا لهُ حتى تعلموا أن قد كافأتموهُ)(1) وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: (إذا قال الرجلُ لِأَخِيهِ: جَزَاكَ اللهُ خيرًا ، فقد أَبْلَغَ في الثَّناءِ)(2)، فالنبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى التعزيز ولو بالكلمة لما له من أثر تربوي على الإنسان وتأثيره على السلوك وتكراره واحتمالية ظهوره مرات متعددة كونه محكوم عليه بأنه سلوك سوي حسن.

(1) أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، حديث:5109.

(2) الألباني، صحيح الجامع، حديث:708.

وما يخلص إليه الحديث عن التعزيز أن له أثرا كبيرا في نفس الإنسان من حيث الكف عن السلوك المنحرف والإقبال على السلوك السوي الذي يحمد عقباه، والنفس الإنسانية تحب المكافأة لذلك كان لها أشكال متعددة وكلٌّ بحسبه، فمنهم من تنفع معه المكافأة المادية ومنهم المعنوية، وفي حديث تقسيم الغنائم ما يدل على ذلك فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قالَ نَاسٌ مِنَ الأنْصَارِ، حِينَ أفَاءَ اللهُ علَى رَسولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما أفَاءَ مِن أمْوَالِ هَوَازِنَ، فَطَفِقَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعْطِي رِجَالًا المِئَةَ مِنَ الإبِلِ، فَقالوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعْطِي قُرَيْشًا ويَتْرُكُنَا، وسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِن دِمَائِهِمْ، قالَ أنَسٌ: فَحُدِّثَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمَقالَتِهِمْ، فأرْسَلَ إلى الأنْصَارِ فَجَمعهُمْ في قُبَّةٍ مِن أدَمٍ، ولَمْ يَدْعُ معهُمْ غَيْرَهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: ما حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ، فَقالَ فُقَهَاءُ الأنْصَارِ: أمَّا رُؤَسَاؤُنَا يا رَسولَ اللهِ فَلَمْ يقولوا شيئًا، وأَمَّا نَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أسْنَانُهُمْ فَقالوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعْطِي قُرَيْشًا ويَتْرُكُنَا، وسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِن دِمَائِهِمْ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

د. محمد خالد السميري

فإنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَديثِي عَهْدٍ بكُفْرٍ أتَألَّفُهُمْ، أما تَرْضَــوْنَ أنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالأمْوَالِ، وتَذْهَبُونَ بالنبيِّ صَــلَّى اللهُ عليه وســلَّمَ إلى رِحَالِكُمْ ، فَوَاللهِ لَما تَنْقَلِبُونَ به خَيْرٌ ممَّا يَنْقَلِبُونَ به قالوا: يا رَســولَ اللهِ قدْ رَضِــينَا، فَقالَ لهمُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: سَتَجِدُونَ أُثْرَةً شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حتَّى تَلْقَوُا اللهَ ورَسوله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فإنِّي علَى الحَوْضِ قالَ أنَسٌ: فَلَمْ يَصْبِرُوا.[1]

(1) البخاري، صحيح البخاري، حديث: 4331.

د. محمد خالد السميري

ثانيا: العقاب

يعرف العقاب أنه نتيجة غير مرغوب فيها تتبع السلوك المنحرف لتقليل احتمالية ظهوره مرة أخرى، ويعد أسلوبا تربويا متبعا في الأوساط التربوية العالمية، وقد جاء العقاب في الإسلام لتعديل سلوك الإنسان وابتعاده عن الانحراف وعدم الرجوع إليه وقد جاء في القرآن الكريم الحدود والقصاص لحماية المجتمع من الانحراف والجريمة والتعدي على الأنفس، ولو لم يكن له أثر كبير في تعديل السلوك الإنساني لما جاء الوحي به قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النَّحل : ١٢٦].

وجاء في القرآن الكريم استراتيجية تأديب الرجل زوجته تربويا بالتدرج قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النِّسَاء : ٣٤]، وضابط الضرب أن لا يكون مبرحا بحيث يكسر أو يؤذي أو يسبب عاهة أو عطبا.

د. محمد خالد السميري

وفي السنة النبوية ما يدل على جواز الضرب ومشروعيته وأنه أسلوب تربوي في الحث وتعديل السلوك الإنساني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مُرُوا أولادَكم بالصلاةِ و هم أبناءُ سبعِ سِنِينَ، واضرِبوهم عليها وهم أبناءُ عشرِ سِنِينَ، وفَرِّقُوا بينهم في المضاجعِ)[1] والضرب يكون لتعويد الطفل على السلوك السوي، مما يجعله مؤهلا لتحمل المسؤولية الجزائية المترتبة على ترك السلوك السوي والانحراف عنه، وضابط الضرب كما جاءت السنة محددة له كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرِ جَلَدَاتٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِن حُدُودِ اللهِ(.[2] فلا يتجاوز المربي هذا القدر من الضرب حتى لا يسبب أذى نفسيا للمتربي.

(1) الألباني، صحيح الجامع، حديث:5868.

(2) البخاري، صحيح البخاري، حديث:6848.

د. محمد خالد السميري

ثالثا: الموعظة والعبرة

تعرف الموعظة بأنها: "الوصية بالحق والخير، واجتناب الباطل والشر، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب، فتبعث على الفعل والترك"[1] وتعرف العبرة: "بأنها حالة نفسية تتيح للمرء معرفة المغزى والمآل لأمر ما يشاهده الإنسان ويتبصر فيه ويتدبره ويقوم باستقرائه ومقايسته فيصل إلى نتيجة مؤثرة يخشع لها قلبه، فيدفعه ذلك إلى سلوك فكري واجتماعي مناسب"[2]، وتشتمل الموعظة على ركنين وهما: الترغيب والترهيب، وهي أسلوب تربوي يحث على فعل محمود، وينهى عن فعل مذموم، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستخدم أسلوب الوعظ كثيرا مع أصحابه رضي الله عنهم ففي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال: (وعظنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومًا بعد صلاةِ الغداةِ موعظةً بليغةً ذرفَتْ منها العيونُ ووجِلتْ منها القلوبُ فقال رجلٌ إنَّ هذه موعظةُ مُودِّعٍ فماذا تعهد إلينا يا رسولَ اللهِ قال أوصيكم بتقوى اللهِ، والسمعِ والطاعةِ وإن عبدٌ حبشيٌّ فإنه من يعشْ منكم يرَ اختلافًا كثيرًا،

(1) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج11، ص328.

(2) السيد، عاطف، التربية الإسلامية أصولها ومنهجها، ص55.

د. محمد خالد السميري

وإياكم ومحدثاتِ الأمورِ، فإنها ضـــلالةٌ فمن أدرك ذلك منكم فعليه بســـنَّتي وســـنةِ الخلفاءِ الراشـــدِين المهديِّين عَضـــوا عليها بالنواجذِ)[1] وفي الحديث فوائد جمة في تعديل مسـار أخلاق الإنسـان وأفعاله، وتربية لهم على الاتباع للوحي.

وكان من ضـــمن ذلك ما جاء في حجة الوداع فقد جاء في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضـــي الله عنهما أَنَّهُ كَانَ وَاقِفًا بِعَرَفاتٍ، فَنَظَرَ إِلَى الشَّـــمْسِ حِينَ تَدَلَّتْ مِثْلَ التُّرْسِ لِلْغُرُوبِ فَبَكَى وَاشْـــتَدَّ بُكَاؤُهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ عِنْدَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَدْ وَقَفْتَ مَعِي مِرَارًا، لِمَ تَصْـــنَعُ هَذا؟ فَقَالَ: ذَكَرْتُ رَسُـــولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ وَاقِفٌ بِمَكَانِي هذا فَقَالَ: (**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ دُنْيَاكُمْ فِيما مَضَى مِنْهَا إِلا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ**)[2].

(1) الترمذي، سنن الترمذي، حديث:2676.

(2) أحمد بن حنبل، المسند، حديث:6173.

د. محمد خالد السميري

رابعا: قلب الدوافع

وهو تحويل الدوافع السلبية إلى دوافع إيجابية، وهذا يحتاج إلى تدريب وتمرن وبيان معرفي للفرد، فيعرّف الفرد بأن السلوك الذي سلكه ناتج عن دافع سلبي منحرف، وهذا في ابتداء الأمر، ثم تبيان السلوك الأسلم حتى يسلكه ويجاهد نفسه، وقد يكون في بداية الأمر شاقا على النفس، ولكن ما يلبث بعد ذلك حتى يصبح سلوكا يسلكه الإنسان، ومثال ذلك قلب دافع حب التملك إلى دافع الإنفاق وذلك من خلال تعريفه بما جاء في فضل الإنفاق والمنفقين في خطاب الوحي الإلهي وأنها عبادة عظيمة يرتقي بها الفرد في سلوكه، قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾ [البَقَرَة: ٢٦١ - ٢٦٢]

و قال سبحانه وتعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧﴾ [الحَدِيد: ٧]

د. محمد خالد السميري

وفي السـنة النبوية المطهرة من قول رسـولنا صـلى الله عليه وسـلم الأحاديث الكثيرة في الحث على الإنفاق كما قال صـلى الله عليه وسـلم: **(ما مِن يَومٍ يُصْـبِحُ العِبادُ فِيهِ، إلَّا مَلَكانِ يَنْزِلانِ، فيَقولُ أحَدُهُما: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويقولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا)**[1].

وقال صـلى الله عليه وسـلم فيما يرويه عن ربه جل وعلا: (قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: أنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ، وقالَ: يَدُ اللهِ مَلْأَى، لا تَغِيضُـها نَفَقَةٌ، سَـحَّاءُ اللَّيْلَ والنَّهارَ. وقالَ: أرَأَيْتُمْ ما أنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّـماءَ والأرْضَ؟! فإنَّه لَمْ يَغِضْ ما في يَدِهِ، وكانَ عَرْشُهُ علَى الماءِ، وبِيَدِهِ المِيزانُ يَخْفِضُ ويَرْفَعُ[2].

وفيما سـبق من الأدلة مثل لقلب دافع التملك إلى دافع الإنفاق، وضـبط دافع الطعام المحرم إلى الأكل الحلال كما في تناول المسـكرات والمخدرات وتحويلها وصـرفها وتوجيهها إلى ما يوافق دين الله تعالى، وكذا دافع الجنس وتصـريف الغريزة الجنسـية فيما أحل الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسْرَاء : ٣٢] فتصـريف الشـهوة يكون في الحلال، وورد في ذلك حديث رسـولنا صـلى الله

(1) البخاري، صحيح البخاري، حديث: 1442

(2) البخاري، صحيح البخاري، حديث: 4684

د. محمد خالد السميري

عليه وسلم: (**في بُضْعِ أحدِكم صدقةٌ ! قالوا : يا رسولَ اللهِ ! أيأتي أحدُنا شهوتَه ويكونُ له فيها أجرٌ ؟ ! قال : أرأيتم لو وضــعها في حرامٍ أكان عليه فيها وزرٌ ؟ قالوا : بلى ، قال : فكذلك إذا وضعها في الحلالِ كان له فيها أجرٌ**)[1].

وفي حديث الرجل الذي جاء النبي صــلى الله عليه وســلم يســتأذنه بالزنا، فقلب النبي صلى الله عليه و سلم و صرفها بأسلوب معرفي إقناعي، فعن أبي أمامة ر ضي الله عنه: (**أنَّ غلامًا شابًّا أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ و سلَّم فقال : يا نبيَّ اللهِ أتأذنُ لي في الزنا ؟ فصــاح الناسُ به، فقال النبيُّ صــلَّى اللهُ عليهِ وسـلَّم قَرِّبوهُ، ادْنُ فدنا حتى جلس بين يديْهِ، فقال النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ : أتحبُّه لأُمِّكَ فقال : لا، جعلني اللهُ فداك، قال : كذلك الناسُ لا يُحبُّونَه لِأمَّهاتِهم، أتحبُّه لابنتِك ؟ قال : لا ، جعلني اللهُ فداك قال : كذلك الناسُ لا يُحبُّونَه لبناتِهم، أتحبُّه لأختِك ؟ وزاد ابنُ عوفٍ حتى ذكر العمَّةَ والخالةَ، وهو يقولُ في كلِّ واحدٍ لا، جعلني اللهُ فداك، وهو صــلَّى اللهُ عليهِ وســلَّم يقولُ كذلك الناسُ لا يُحبُّونَه، وقالا جميعًا في حديثِهما – أعني ابنَ عوفٍ والراوي الآخرَ**

(1) مسلم، صحيح مسلم، حديث: 720.

- : فوضع رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يدَه على صدرِه وقال: اللهمَّ طهِّرْ قلبَه واغفر ذنبَه وحصِّنْ فَرْجَه فلم يكن شيءٌ أبغضَ إليه منه)[1].

(1) البيهقي، شعب الإيمان، حديث: 5415.

خامسا: ضبط النفس

يحتاج ضبط النفس إلى التمتع بقوة نفسية، والقوة النفسية يستمدها الإنسان من إيمانه بالله تعالى وإيمانه بالقضاء والقدر والتزامه الأحكام والأوامر التي تطلب منه، فضبط النفس ومجاهدتها تمرين لها على أن تتطبع على الخلق الحسن وتمارسه في كافة سلوكياتها التي تصدر عنها، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى ضبط النفس عند الملمات، فأمر امرأة بالصبر وهي تبكي على قبر ولد لها، **(مَرَّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقالَ: اتَّقِي اللهَ واصْبِرِي قالَتْ: إلَيْكَ عَنِّي، فإنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصِيبَتِي، ولَمْ تَعْرِفْهُ، فقِيلَ لَهَا: إنَّه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأتَتْ بَابَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقالَ: إنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى)**[1]

وأشار صلى الله عليه وسلم إلى ضبط النفس بالاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم وفيما روى سليمان بن صرد رضي الله عنه: **(كُنْتُ جَالِسًا مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ورَجُلَانِ يَسْتَبَّانِ، فأحَدُهُما احْمَرَّ وجْهُهُ، وانْتَفَخَتْ أوْدَاجُهُ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قالَهَا**

(1) البخاري، صحيح البخاري، حديث:1283.

د. محمد خالد السميري

ذَهَبَ عنْه ما يَجِدُ، لو قالَ: أعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّـيْطَانِ، ذَهَبَ عنْه ما يَجِدُ فَقالوا له: إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه و سلَّمَ قالَ: تَعَوَّذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَقالَ: وهلْ بي جُنُونٌ)[1]. فأرشـد صـلوات الله وسـلامه عليه إلى الاسـتعاذة من الشـيطان الرجيم لضبط النفس وعدم الانجرار خلف وسوسته والتي توصل الإنسان إلى ما لا يحمد عقباه وقد يصل إلى القتل إن استمر في الانجرار وراء غضبه وطيشه.

وكما في الحديث الذي أوصـى به النبي صـلى الله عليه وسـلم بعدم الغضـب وهو وصـية جامعة في ضـبط النفس الإنسـانية ومنعها من التمرد والانفلات الانفعالي، فجاء إليه رجل فقال: **للنَّبيِّ صـلَّى اللهُ عليه وسـلَّم: أوْصِنِي، قالَ: (لا تَغْضَبْ. فَرَدَّدَ مِرَارًا، قالَ: لا تَغْضَبْ)**[2] فتكرار النبي صلى الله عليه وسـلم له نفس الوصـية دليل على ضـرورة كتم الغضـب وضـبط النفس البشرية عن الانقياد وراء جمرة الغضب التي تحرق الإنسان.

(1) البخاري، صحيح البخاري، حديث:3282.

(2) البخاري، صحيح البخاري، حديث:6116

د. محمد خالد السميري

سادسا: القدوة الحسنة

تعد القدوة مؤثرة في أخلاق الإنسان، وبه يقتدي الإنسان في حياته ومعاملاته وسلوكه، فالله تعالى جعل لنا ميزانا في الاقتداء وهم الأنبياء والمرسلين وأن يتخلق المسلم بأخلاقهم ويحذو حذوهم وطريقتهم قال الله تعالى في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم ومرشدا إيانا إلى جعله أسوة لنا في كافة معاملاتنا الاجتماعية والتعبدية والأخلاقية والمالية وكافة ما يصلح الله لنا حالنا ومآلنا ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأَحْزَاب : ٢١]، فمن أراد النجاة فليزم طريقة ومنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وليتبع آثاره، فأخلاقه رفيعة وسماته نبيلة صلى الله عليه وسلم.

وتعد القدوة الحسنة ركيزة أساسية في حياة الإنسان، والطفل حين ينشأ فإنه يحاكي من هو أكبر منه ومن يلاصقه ويتأثر به، ولذلك لابد من الانتباه إلى التصرفات وضبط الأفعال أمام الأطفال لأن الطفل إذا رأى والديه يمارسان الفعل فإن ذلك يعد تشريعا بالنسبة له، ولابد من محاضن يستمد منها الفرد الأخلاق الحسنة والقدوة الطيبة كالمساجد التي فيها تعظيم لله تعالى وممارسة العبادة والاجتماع مع الناس والتسوية بين الأغنياء

والفقراء، وكذا دور القرآن وحلقات التحفيظ، وكذا البيت الذي نشأ في طاعة الله تعالى، فالقدوة الحسنة لها أثر كبير في أخلاق الإنسان وما يصدر عنه من أفعال وأقوال.

سابعا: الأحكام التكليفية الخمسة

تعد أنجع الوسائل في تعديل الأخلاق الأحكام التكليفية الخمسة التي جاء النص عليها من الكتاب والسنة والتي تعد ناظمة للسلوكيات في كافة مناحي الحياة، والشرع يأتي بخطاب طلب الفعل أو طلب الترك وهي:

الوجوب، الاستحباب، الحرام، المكروه، الإباحة.

وهي أعظم أثرا في نفس المسلم وهذا ما انفردت به النظرية النفسية الإسلامية عن نظريات علم النفس الحديث، والإسلام جاء ليعدل السلوك ويضبطه بالطرق التي تتناسب مع الطبيعة الإنسانية سواء كان في العقيدة أو الشريعة، قال تعالى: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النِّسَاء: ٣٦] فقدم القرآن الكريم تعديلا لمعتقد الفرد من الشرك إلى التوحيد، ومن العقوق إلى الإحسان، فالحرام أمر بتركه وبفعل نقيضه وهو الواجب.

وفي قوله تعالى﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ

وَإِيَّاهُمۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأَنْعَام : ١٥١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾ [آل عِمْرَان : ١٣٠].

وقد أكرم الله المسلمين بالخطاب المعرفي والوجداني وأمر بالفعل وهذا بحد ذاته يترجم عظيم فضل الله على المسلمين من أن المسلم يتعدل سلوكه بمجرد خطاب رباني سواء كان يحتمل الوعيد أو الوعد، في حين أن الغرب الذي استُورِدت نظرياته واتكأ عليها الأكاديميون يفتقرون إلى هذه القواعد الضابطة، ولا يستطيعون السيطرة على البشر في دولهم إلا بالقوانين الضاغطة عليهم، فلو غاب القانون أصبحت شريعة الغاب هي التي تتحكم، بينما الإسلام قدم ضوابط وجدانية تضبط سلوك المسلم بمجرد التذكر ولنا في ذلك دليل قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عِمْرَان : ١٣٥] قاموا بتعديل سلوكهم بمجرد ما صدر منهم ذنب وأتبعوه بالتوبة والاستغفار وعد الإصرار على تلك المعصية خوفا ورهبا من الله تعالى.

وفي الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: **(سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : وأهوى النعمانُ بإصبعَيه إلى أُذُنَيه : إنَّ الحلالَ بيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ وبينهما أمورٌ مُشتبِهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس فمنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ استبرأ لدِينِه وعِرضِه ، ومن وقع في الشُّبهاتِ وقع في الحرامِ ، كالراعي يرعى حول الحِمى يوشكُ أن يرتعَ فيه ، ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حمًى ، ألا وإنَّ حمى اللهِ محارمُه ، ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صلُحتْ صلُح الجسدُ كلُّه وإذا فسدتْ فسد الجسدُ كلُّه ألا وهي القلبُ)**[1].

فالإسلام حدد للإنسان الضوابط التي يسير عليها؛ ليكون سلوكه السلوك الأقوم والأسلم تجاه ربه جل وعلا، فالخطاب الإلهي يوجه مسير الإنسان نحو الأصلح له في دينه ودنياه، وقوة الخطاب هي المؤثرة على النفس الإنسانية ولها قداسة معتبرة.

(1) البخاري، صحيح البخاري، حديث 52.

د. محمد خالد السميري

برنامج عملي إجرائي لتعديل الأخلاق

وأُوجز برنامجا عمليا لتعديل الأخلاق والكف عن الأخلاق القبيحة بما قاله ابن القيم وقدمه من خطوات عملية تؤدي إلى تعديل الأخلاق القبيحة إلى أخلاق حسنة وفق نقاط وهي كما يأتي[1]:

1- أن ينظر إلى مادة قوة الشـهوة فيحدها من الأغذية المحركة للشـهوة إما بنوعها أو بكميتها وكثرتها؛ ليحسـم هذه المادة بتقليلها فإن لم تنحسم فليبادر إلى الصوم فإنه يضعف مجاري الشهوة ويكسر حدتها ولا سيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلا.

2- أن يجتذب محرك الطلب وهو النظر فليقصـر لجام طرفه ما أمكنه فإن داعي الإرادة والشـهوة انما يهيج بالنظر، والنظر يحرك القلب بالشهوة.

3- تسـلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام فإن كل ما يشـتهيه الطبع ففيهما أباحه الله سـبحانه غنية عنه وهذا هو الدواء النافع في حق أكثر الناس.

(1) ابن القيم، عدة الصابرين، ج1، ص58

د. محمد خالد السميري

4- التفكر في المفاسـد الدنيوية المتوقعة من قضـاء هذا الوطر فانه لو لم يكن جنة ولا نار لكان في المفاســد الدنيوية ما ينهى عن إجابة هذا الداعي.

5- الفكرة في مقابح الصــورة التي تدعوه نفســه اليها إن كانت معروفة بالإجابة له ولغيره فيعز نفســه أن يشــرب من حوض ترده الكلاب والذئاب.


وسائل
تعديل الأخلاق
1. التعزيز
هو مكافأة السلوك الحسن وتثبيته ليتكرر ويستمر.
أمثلة:
• التناء والمدح
• المكافآت المادية والمعنوية
• إظهار الرضا والقبول
2. العقاب
ترتيب عقوبة مؤلمة على السلوك غير المرغوب فيه
أمثلة:
• اللوم والتوبيخ
• الحرمان من شيء محبب
• العقوبات التربوية المشروعة
3. الموعظة والعبرة
تذكير بالقلب بالحكمة والمصير وما بترتب على الأفعال.
وسائلها:
• القصص القرآني والسير
• تذكر الموت والآخرة
• التفكر في نعم الله وآلائه
4. قلب الدوافع
تغيير الدوافع والنيات حتى يصدر السلوك عن حب الخير لا عن مصلحة دنيوية.
يتم ذلك من خلال:
• تصحيح النية والإخلاص
• حب الله ومراقبته
• تحويل الدوافع الأنانية إلى دوافع سامية
5. ضبط النفس
مجاهدة النفس والتحكم في الرغبات والشهوات وفق الشريعة والعقل.
وسائله:
• الصبر والمجاهدة
• تنظيم الأوقات
• تذكر العواقب ومحاسبة النفس
6. القدوة الحسنة
التأثر بالنماذج الصالحة في السلوك والخلق والاقتداء بهم.
فوائدها:
• ترشد إلى الطريق الصحيح
• تغرس القيم في النفس عملياً
• تؤثر في القلب أكثر من القول
7. الأحكام التكليفية الخمسة
الأوامر والنواهي التي تضبط سلوك الإنسان وفق الشريعة.
1 الواجب ما طلب الشارع فعله طلبًا جازما مع الثواب على فعله.
2 المندوب ما طلب الشارع فعله طلبًا غير جازم مع الثواب على فعله.
3 المباح ما أذن الشارع في فعله أو تركه دون ثواب أو عقاب.
4 المكروه ما نهى الشارع عن فعله نهياً غير جازم مع الإثم على فعله.
5 الحرام ما نهى الشارع عن فعله نهياً جازما مع الإثم والعقاب على فعله.



المبحث السابع

الأخلاق الكبرى وما يتفرع عنها

د. محمد خالد السميري

المبحث السابع: الأخلاق الكبرى وما يتفرع عنها

تناول علماء الإ سلام مو ضوع الأخلاق الكبرى للإنسان واعتنوا بها؛ لما لها من دلالات في التنبؤ بالسلوك الإنساني الذي يحدث، والإشارة إلى منشأ هذا السلوك و سبب وروده، فالفضائل يتولد ويتفرع عنها مجموعة من الأخلاق الفرعية وهي الأخلاق الحميدة، والرذائل يتولد ويتفرع عنها مجموعة من الأخلاق الفرعية وهي الأخلاق المذمومة.

المطلب الأول: رؤية ابن قيم الجوزية

ويشير ابن القيم إلى أن الإنسان فيه أخلاق أربع، ويسميها الأخلاق العالية التي تؤثر في النفوس، فيقول: "فإن قوى النفوس تتضاعف وتتزايد بحسب ذلك ولا سيما عند مخالفة هواها وحملها على الأخلاق العالية من العفة والشجاعة والعدل والسخاء وتجنبها سفساف الأخلاق ورذائلها وسافلها"[1]، بمعنى أن الأخلاق العالية للنفس الإنسانية هي العفة والشجاعة والعدل والسخاء وهو الكرم، وهي من الأفعال الحميدة، "والفطر السليمة داعية إلى تحصيل المستحسن ورفض المستقبح سواء حمله عليه شارع أو

(1) ابن القيم، الروح، ص298.

د. محمد خالد السميري

لم يحمله، ثم الأخلاق الحميدة والخصال الرشيدة من العفة والجود والسخاء والنجدة مستحسنات فعلية وأضدادها مستقبحات فعلية، وكمال حال الإنسان أن تستكمل النفس قوى العلم والحق والعمل الخير والشرائع"[1] والشرع يأمر بالأفعال الفاضلة وكذلك العقل والعرف ما لم يخالف الشرع.

ويعتبر ابن القيم أن "حسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل"[2] فهي أصل الفضائل كلها وأصل الأخلاق الحسنة التي تتفرع عن هذه الأخلاق الكبرى أخلاق فرعية متعددة، وهي كما يأتي:

1- **الصبر**: وهو حبس النفس، ويتفرع عنها مجموعة من الأخلاق وهي أنه "يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة"[3]. فالصبر يحمل الإنسان على تحمل الآخرين فيما يقابله منهم، ويحمله على كف

(1) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج2، ص56.

(2) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص294.

(3) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص294.

د. محمد خالد السميري

غيظه وحبس نفســـه عن إيذائهم ومجاراتهم، وهذا يوصـــله إلى الحلم والرفق بـالآخرين، وعـدم النزوع إلى الطيش في معـاملتهم وفي تدبير شؤونه، والتأني في شؤونه كلها.

2- **العفة**: ويتفرع عنهـا مجموعـة من الأخلاق الفرعيـة، وهي التي "تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشـــاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة"[1] فالإنســـان العفيف هو الذي اجتنب الرذائـل والأخلاق التي ينبغي على المؤمن أن يتجنبهـا، كفحش القول والغيبة والنميمة والكذب، وهذه السـلوكيات التي يسـلكها الإنســـان ناتجة عن انفعالات نفســـية، ومهمة الحياء هي تعديل سلوك الإنسان.

3- **الشـــجاعة**: وهي التي "تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشـيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شـجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ

(1) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص294.

د. محمد خالد السميري

والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش"[1]، ومعنى ذلك أن الإنسان الذي اتسم بالشجاعة لابد من سلوك يبرز هذا الخلق، كعزة النفس، وشجاعة النفس في بذل المال في وجوه الخير، وكظم الغيظ والحلم على الناس.

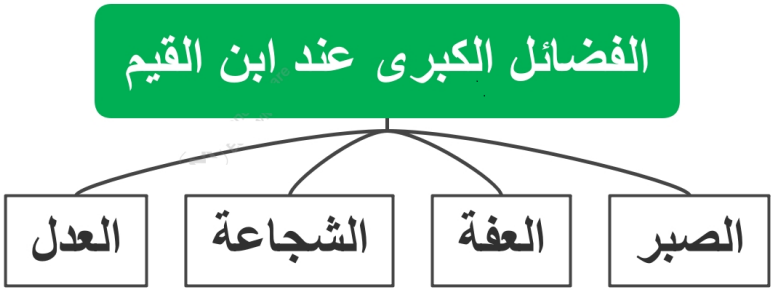
4- **العدل**: وهو الذي "يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط. فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة. وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور. وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس"[2]، فالعدل حامل له على كل خلق محمود، ومبعد له عن كل خلق مذموم.

ويوضح الشكل الآتي الفضائل الكبرى عند ابن القيم:

الشكل 1: الأخلاق والفضائل الكبرى عند ابن القيم

(1) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص294.

(2) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص294.


الفضائل الكبرى عند ابن القيم
الصبر
العفة
الشجاعة
العدل

ويرى على النقيض من الأخلاق الفاضلة أن هناك أخلا قا قبيحة، ومنشؤها "وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب"[1]، ويتفرع عن هذه الأخلاق الكبرى أخلاق فرعية وهي كما يأتي[2]:

1- **الجهل**: ويتسم بأنه: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصا والنقص كمالا.

2- **الظلم**: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضا، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

(1) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص295.

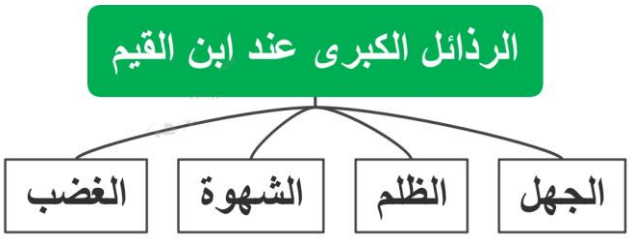
(2) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص295.

3- **الشــهوة**: تحمله على الحرص والشــح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع، والذل والدناءات كلها.

4- **الغضــب**: يحمله على الكبر والحقد والحســد، والعدوان والسفه.

ويوضح الشكل الآتي الرذائل الكبرى عند ابن القيم

الشكل2: الرذائل الكبرى عند ابن القيم



وفيما يأتي عرض للفضـــائل أو الأخلاق الكبرى وما يتفرع عنها من أخلاق فرعية:

جدول3: *الأخلاق الكبرى وما يتفرع عنها لدى ابن القيم*

الصبر	العفة	الشجاعة	العدل
الاحتمال	اجتناب الرذائل	عزة النفس	جامعة لكل الفضائل
كظم الغيظ	اجتناب القبائح في القول والعمل	إيثار معالي الأخلاق والشيم	
كف الأذى	الحياء	البذل والندى وهو بذل المحبوب	
الحلم	تمنعه من الكذب	كظم الغيظ	
الأناة	تمنعه من البخل	الحلم	
الرفق	تمنعه من الغيبة	إمساك النفس	
عدم الطيش	تمنعه من النميمة	البعد عن البطش والنزغ	
عدم العجلة			

د. محمد خالد السميري

ويشير ابن القيم إلى أن "الأخلاق الذميمة يولد بعضها بعضا، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضـــها بعضـــا، وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين، وهو وســـط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان"[1]، وهو أن الأخلاق تتحد وتتركب مع بعضـــها؛ لتولد أخلاقا أخرى إما أن تكون ذميمة وإما أن تكون محمودة، بحسب ما تتركب منه، وتنحرف النفس إلى أحدهما بحسب الموقف، فالفضيلة على طرفيها رذيلتان، فإذا مالت النفس إلى أحدهما بغلو أو تقصير وقعت في رذيلة، فيقول ابن القيم[2]:

1- **الجود**: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير.

2- **التواضع**: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة. والكبر والعلو.

3- **الحياء**: ينحرف إما إلى قحة وجرأة، وإما إلى عجز وخور ومهانة.

4- **الصبر المحمود**: ينحرف: إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع.

(1) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص295.

(2) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص295-296.

د. محمد خالد السميري

5- **الحلم**: ينحرف: إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة.

6- **الأناة والرفق:** ينحرف: إما إلى عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة. والرفق والأناة بينهما.

7- **العزة التي وهبها الله للمؤمنين:** تنحرف: إما إلى كبر، وإما إلى ذل.

8- **الشـجاعة**: تنحرف: إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم.

9- **المنافسة في المراتب العالية والغبطة**: تنحرف: إما إلى حسد، وإما إلى مهانة، وعجز وذل ورضا بالدون.

10- **القناعة:** تنحرف: إما إلى حرص وكلب، وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة.

11- **الرحمة** تنحرف: إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس.

12- **طلاقة الوجه، والبشر المحمود**، فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد، وطي البشر عن البشر، وبين الاسترسال

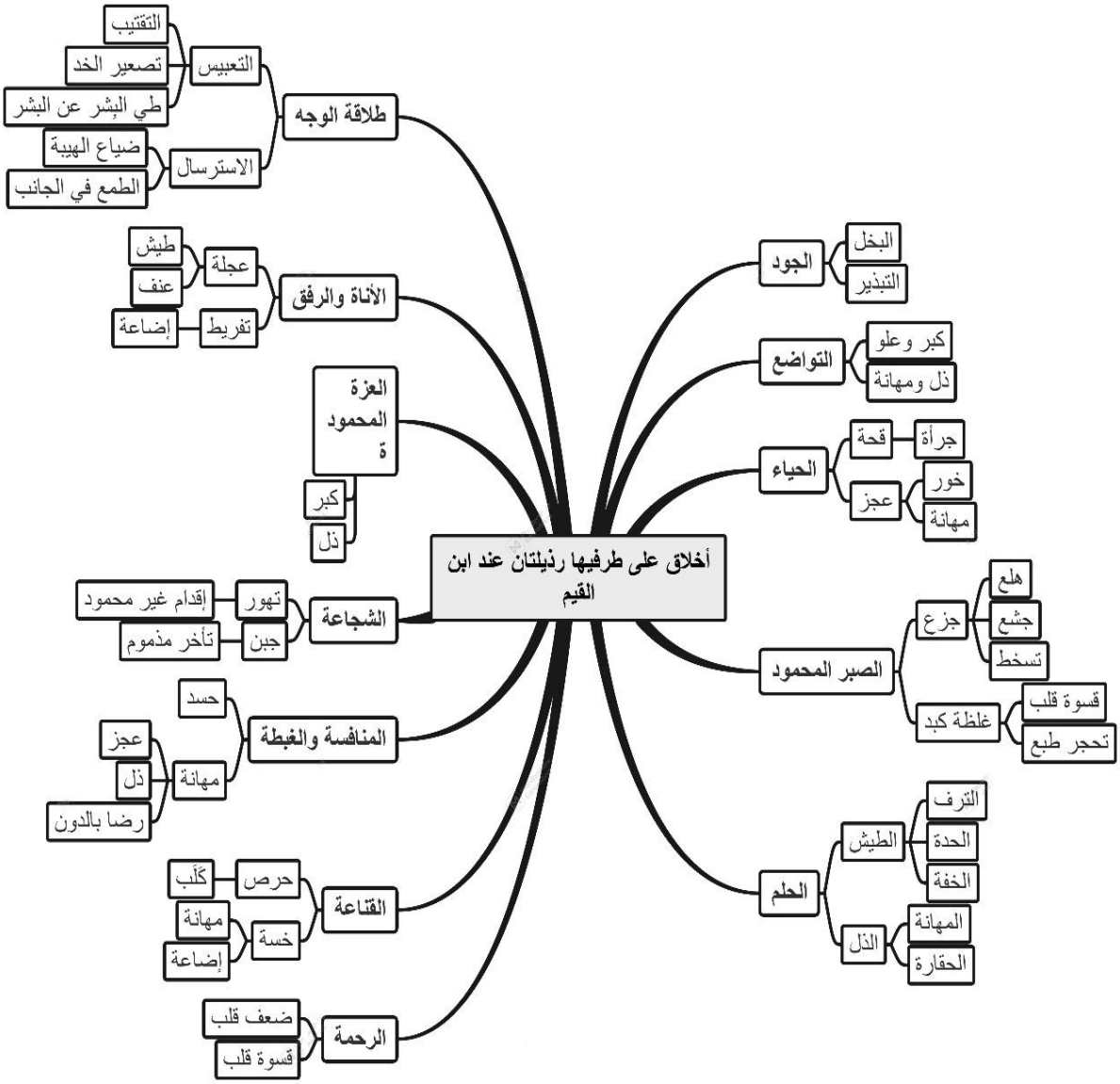
د. محمد خالد السميري

بذلك مع كل أحد، بحيث يذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة، والنفرة في قلوب الخلق.

د. محمد خالد السميري

ويوضـــح الشـــكل الآتي الأخلاق التي يكون على طرفيها رذيلة، بحســـب الإفراط والتفريط عند ابن القيم الجوزية:

الشكل3: أخلاق على طرفيها رذيلتان عند ابن القيم



د. محمد خالد السميري

المطلب الثاني: رؤية الغزالي للأخلاق

ويرى الغزالي أن الفضائل كثيرة ومتعددة، ولكن تجمع أصولها أربع فضائل: "وهي الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة، فالحكمة: فضيلة القوة العقلية، والشجاعة: فضيلة القوة الغضبية، والعفة: فضيلة القوة الشهوية، والعدالة: عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب فيها، فبها تتم جميع الأمور"[1]، فالفضائل الكبرى: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة تنشأ منها الأفعال والتصرفات، وتنشأ هذه الفضائل كل واحدة من قوى محددة، فالحكمة تنشأ من القوة العقلية وتنقسم إلى قسمين وهي: "الأولى الحكمة العلمية النظرية: وهي التي تلي جهة تحت أعني جهة البدن وتدبيره وسياسته، وبها تدرك النفس الخيرات من الأعمال وتسمى العقل العملي، والثانية الحكمة الخلقية: وهي حالة وفضيلة للنفس العاقلة تسوس القوة الغضبية والشهوية وتقدر حركاتهما على الحد الواجب من الانقباض والانبساط"[2]، والشجاعة التي تنشأ عن القوة الغضبية التي فيها الحمية والمدافعة، والعفة التي تنشأ عن القوة الشهوية التي فيها حياة الإنسان

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص85.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص86.

د. محمد خالد السميري

وقوامها، والعدالة التي وهي اتحاد جملة الفضائل مع بعضها وتركبها حتى تضبط حركة جميع القوى الأخرى.

وتعد الفضائل عند الغزالي من الأخلاق الكبرى التي على طرفيها رذيلتان، فمتى مالت أو غالت أو قصرت انتقلت من الفضيلة إلى حد الرذيلة، وذلك بحسب ما يتعاطاه الإنسان من أفعال وميول نفس، وهي وفق التقسيم الآتي:

1- **فضيلة الحكمة:** "يكتنفها رذيلتان وهما: الخِبُّ والبَلَه، فالخب: طرف في إفراطها وزيادتها وهي حالة يكون فيها الإنسان ذا مكر وحيلة بإطلاق الغضبية والشهوية؛ لتتحركا إلى المطلوب حركة زائدة على قدر الواجب"[1] أي أن الخب: هو إفراط في ا ستعمال الحكمة حتى تصل إلى المكر والخديعة التي تنشأ من قوتين هما القوة الغضبية والقوة الشهوية حتى تحرك الإنسان إلى مطلوباته بشره وشهوة وغضب دون اعتدال؛ وذلك بسبب غياب الحكمة والعدالة، وهي من الأخلاق التي تنشأ من

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص86.

د. محمد خالد السميري

اتحاد قوتين، "ويندرج تحت رذيلة الخب والدهاء والجربزة"[1]. ومعنى الجربزة الخبث.

وأما الرذيلة الأخرى التي تندرج تحت فضـيلة الحكمة فهي البَلَه: "فهو طرف تفريطها ونقصـانها عن الاعتدال، وهو حالة للنفس تقصـر بالغضـبية والشـهوية عن القدر الواجب، ومنشـؤه بطء الفهم وقلة الإحاطة بصـواب الأفعال"[2]، وهنا التفريط في الحكمة حتى صـارت السـمة تسـمى البله، وهي حالة قصـرت عن القدر الواجب في اسـتعمال الحكمة على النقيض من الإفراط الذي حصـل حتى وصـلت إلى الخب، "ورذيلة البله يندرج تحتها الغمارة والحمق والجنون"[3]، ومعنى الغمارة الجهل وعدم المعرفة، وهي الأخلاق الفرعية لرذيلة البله، في حين أن الحكمة يندرج تحتها أخلاق فرعية وهي "حسـن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وصواب الظن"[4].

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص87.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص87.

(3) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص87.

(4) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص87.

د. محمد خالد السميري

فيخلص من فضيلة الحكمة أنه يندرج تحتها أخلاق فرعية وهي: حسن التدبير، وجودة الذهن، وثقابة الرأي، وصواب الظن، في حين أنها تقع بين رذيلتين وهما: الخب والبله، والخب لها رذائل تندرج تحتها وهي: الدهاء والجربزة، والبله يندرج تحتها: الغمارة والحمق والجنون.

2- **فضيلة الشجاعة**: "فهي فضيلة القوة الغضبية بكونها قوية الحمية، ومع قوة الحمية منقادة للعقل المتأدب بالشرع في إقدامها وإحجامها، وهي وسط بين رذيلتين مطيفتين بها، وهما التهور والجبن"[1] فمنشأ فضيلة الشجاعة هي القوة الغضبية التي تحرك الإنسان على الحمية، ولكن إذا حصل إفراط في الشجاعة حمل الإنسان على رذيلة التهور، وإذا فرط فيها حملته على الجبن، "ويندرج تحت فضيلة الشجاعة: الكرم والنجدة، وكبر النفس، والاحتمال، والحلم، والثبات، والنبل، والشهامة، والوقار"[2].

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص87.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص88.

د. محمد خالد السميري

ويعتبر التهور: "طرف الزيادة على الاعتدال وهي الحالة التي يقدم بها الإنســان على الأمور المخطرة التي يجب في العقل الإحجام عنها"[1] كمن يلقي نفسـه من شـاهق ظانا أنها شـجاعة، أو يلقي نفسـه في سـاحة المعركة وبوسـط العدو دون أخذ الاحتياط والتنبه للكثرة وتقدير الأمور ظنا منه أنها شـجاعة، ويندرج تحت التهور أخلاق سـلبية وهي: "البذخ، والجسـارة، والتقبح، والاسـتشـاطة، والتكبر، والعجب"[2]، فيتجاسـر الإنسـان على الـذنوب والتعـدي في حقوق الله وحقوق الخلق، والتكبر على النـاس، والعجب لنفسه.

وأما الجبن "فطرف النقصـان وهي الحالة التي بها تنقبض حركة القوة الغضـبية عن القدر الواجب، فتصـرف عن الإقدام حيث يجب الإقدام، ومهما حصـلت هذه الأخلاق صـدرت عنها هذه الأفعال"[3] والجبن يصـدر عن الإحجام في وقت الإقدام وهي على النقيض من التهور، فالزيادة في الشـجاعة تحمل على التهور، والنقصـان في الشـجاعة يحمل على الجبن،

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص87.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص89

(3) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص87.

د. محمد خالد السميري

حتى يصبح الإنسان لا يستطيع مواجهة أي شيء بسبب الجبن والخوف الذي سيطر عليه، ولم يستطع أن يضبطه، ويتولد أخلاق بسبب خلق الجبن: "النذالة، والنكوص، وصغر النفس، والهلع، والانفراط، والتخاسس، والمهانة"[1].

ويخلص الحديث عن فضيلة الشجاعة وما يتفرع عنها من أخلاق وفضائل فرعية تندرج تحتها، أن الشجاعة يندرج تحتها أخلاق فرعية وهي الكرم والنجدة، وكبر النفس، والاحتمال، والحلم، والثبات، والنبل، والشهامة، والوقار، وتقع الشجاعة بين رذيلتين إذا أفرط في الشجاعة حملته على التهور ويندرج تحت التهور رذائل فرعية وهي: البذخ، والجسارة، والتقبح، والاستشاطة، والتكبر، والعجب، وإذا فرط في الشجاعة حملته على رذيلة الجبن ويتولد منها رذائل فرعية وهي: النذالة، والنكول، وصغر النفس، والهلع، والانفراط، والتخاسس، والمهانة.

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص89.

د. محمد خالد السميري

3- **خلق العفة**: "وهي فضيلة القوة الشهوية وهي انقيادها على يسر وسهولة للقوة العقلية حتى يكون انقبا ضها وانبساطها بحسب إ شارتها"[1] فمنشأ فضـيلة العفة هي القوة الشـهوية واسـتعمالها في حد الاعتدال، وفضـيلة العفة من الأخلاق الكبرى للشـخصـية الإنسـانية، ويتفرع عنها أخلاق فرعية أخرى تندرج تحتها وهي: "الحياء، والمسـامحة، والتصـبر، والسـخاء، وحسـن التقدير، والانبسـاط، والدماثة، والانتظام، والقناعة، والهدوء، والورع، والطلا قة، والمسـا عدة، وحسـن الهيئة: أي الزينة الواجبة التي لا رعونة فيها"[2].

ويتوسـط فضـيلة العفة رذيلتان وهما: "الأولى الشـره: وهو إفراط الشـهوة إلى المبالغة في اللذات التي تسـتقبحها القوة العقلية وتنهى عنها، والثانية خمود الشهوة وهو قصور الشهوة عن الانبعاث إلى ما يقتضي العقل تحصـيله"[3]، ويندرج تحت هاتين الرذيلتين مجموعة من الأخلاق الفرعية التي تظهر في سـلوك الإنسـان، وهي: الو قا حة والخبث والتبذير والتقتير

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص89.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص90.

(3) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص89.

د. محمد خالد السميري

والرياء والهتيكة والمجانة والعبث والتحاشي والشكاسة والملق والحسد والشماتة"[1]. والهتيكة معناها الفضيحة، والمجانة قلة الحياء.

ويخلص الحديث على خلق العفة الكبرى أنه يتولد منها أخلاق فرعية وهي: الحياء، والمسامحة، والتصبر، والسخاء، وحسن التقدير، والانبساط، والدماثة، والانتظام، والقناعة، والهدوء، والورع، والطلاقة، والمساعدة، وحسن الهيئة: أي الزينة الواجبة التي لا رعونة فيها. في حين أن فضيلة العفة تقع بين رذيلتين وهما الشره وخمود الشهوة، ويتفرع عن هاتين الرذيلتين مجموعة من الأخلاق الفرعية وهي: الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتيكة والكزارة والمجانة والعبث والتحاشي والشكاسة والملق والحسد والشماتة.

4- **فضيلة العدالة:** "وهي حالة للقوى الثلاث في انتظامها على التناسب تحت الترتيب الواجب في الاستعلاء مع الانقياد، وهي جملة الفضائل"[2]، وهو أن فضيلة العدالة هي التي تجتمع فيها الفضائل الكبرى

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص90.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص90.

د. محمد خالد السميري

الثلاث الســابقة، ويرى الغزالي "أن العدالة لا يكتنفها رذيلتان، بل رذيلة الجور المقابل لها"[1]، أي المضــاد والمناقض للعدل هو الجور الذي يقف في مقابل هذه الفضيلة، "فالعدالة جامعة لجميع الفضائل والأخلاق الحســنة، والجور المقابل لها جامع لجميع الرذائل"[2]، فإذا وجد العدل انتفى الجور، وإذا وجد الجور انتفى العدل، والعدل يحمل الإنسان على الأخلاق الفاضلة كلها، والجور يحمله على الرذائل كلها.

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص91.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص91.

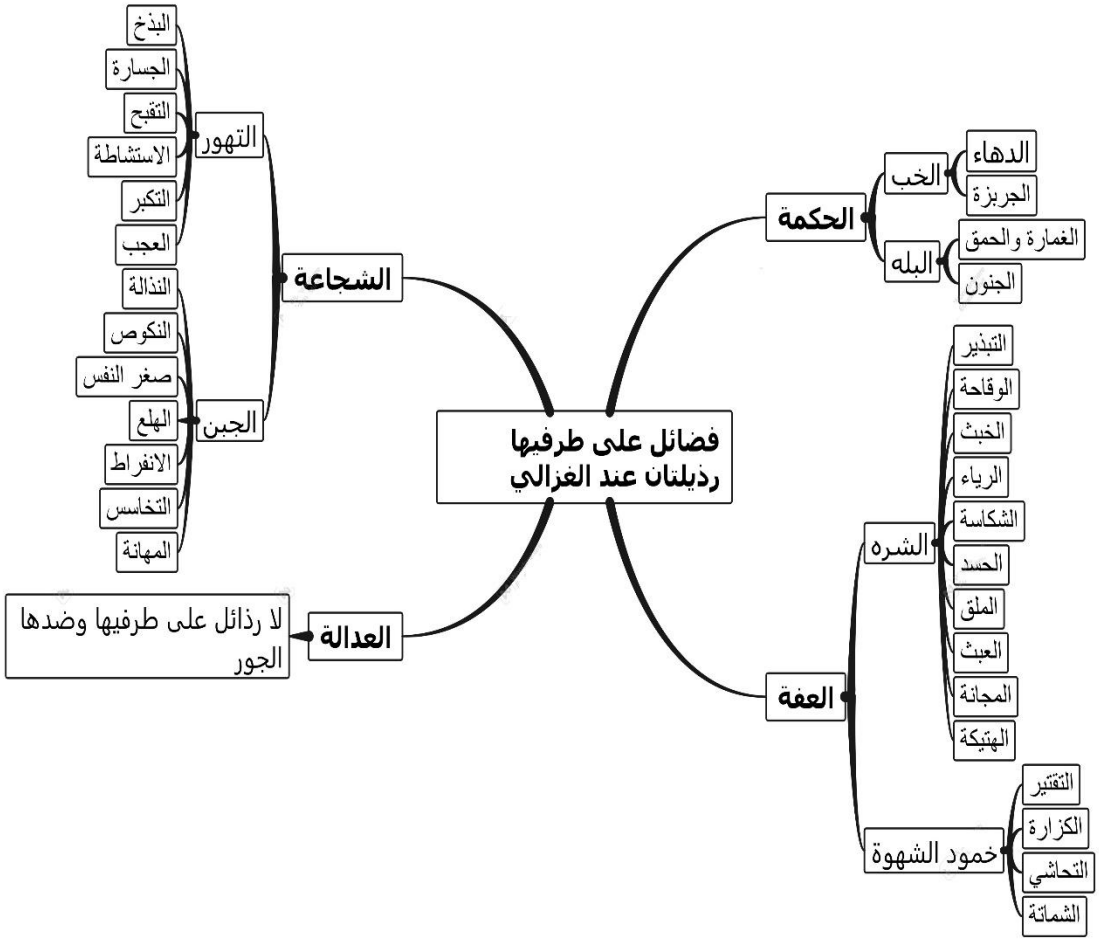
د. محمد خالد السميري

جدول4: *تصـــنيف الأخلاق الكبرى وما يتولد منها من أخلاق فرعية لدى الغزالي*

الحكمة	الشجاعة	العفة	العدالة
حسن التدبير	الكرم	الحياء	جامعة لكل الفضائل
جودة الذهن	النجدة	المسامحة	
ثقابة الرأي	كبر النفس	التصبر	
صواب الظن	الاحتمال	السخاء	
	الحلم	حسن التقدير	
	النبل	الانبساط	
	الشهامة	الدماثة	
	الوقار	الانتظام	
		القناعة	
		الهدوء	
		الورع	
		الطلاقة	
		المساعدة	
		حسن الهيئة	

ويوضــح الشــكل الآتي الأخلاق التي على طرفيها رذيلتان عند الغزالي، بحيث إذا غالت أو قصرت وقعت في رذيلة أي بالزيادة والنقصان.

الشكل4: *فضائل على طرفيها رذيلتان عند الغزالي*



د. محمد خالد السميري

المطلب الثالث: رؤية الأصفهاني للأخلاق

ويرى الأصفهاني أن الفضائل أو الأخلاق الكبرى هي أربع كما نحى إلى ذلك الغزالي، واتبع ذات التقسيم الذي اتبعه الغزالي، وتنشأ هذه الفضائل من القوى المؤثرة في الإنسان، وهي: "قوة الشهوة وقوة الحمية وقوة الفكر"[1]، أي هي القوى المحركة للإنسان وينشأ عنها الأخلاق الفاضلة الكبرى وهي كما يأتي:

1- **فضيلة العفة:** وهي التي تنشأ من "إصلاح قوة الشهوة، فيتحرز بها من الشره وإماتة الشهوة ويتحرى المصلحة في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح وطلب الراحة وغير ذلك من اللذات الحسية"[2]، وفضيلة العفة تتوسط بين رذيلتين وهما: الشره وهي الإفراط في الشهوة وطلبها، وإماتة الشهوة وهي التفريط في استجلابها والتداعي معها ومع متطلباتها.

(1) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص95.

(2) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص95.

د. محمد خالد السميري

2- **فضيلة الشجاعة:** وهي التي تحصل "بإصلاح قوة الحمية، فيتحرز بها من الجبن والتهور والحسد ويتحرى الاقتصاد في الخوف والغضب والأنفة وغير ذلك"[1] وفضيلة الشجاعة الناشئة من قوة الحمية تتوسط بين رذيلتين وهما الجبن والتهور، فالجبن تفريط في الشجاعة، والتهور إفراط عن حد الاعتدال في الشجاعة.

3- **فضيلة الحكمة:** ويشير إليها فيقول: "وبإصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة حتى يحترز من البله والجربزة (الخبث) ويتحرى الاقتصاد في تدبير الأمور الدنيوية"[2]، وفضيلة الحكمة تتوسطها رذيلتان، ففي حين الإفراط في الحكمة يوصل الإنسان إلى الجربزة وهي الخبث والمكر، وفي حين التفريط توصل الإنسان إلى البله.

(1) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص95.

(2) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص95.

د. محمد خالد السميري

4- **فضيلة العدالة:** وهي التي تحصل "بإصلاح القوى الثلاث"[1] قوة الحمية، وقوة الفكر، وقوة الشهوة. ولا رذيلة لها؛ لأنها جامعة للفضائل.

وهذا التقسيم الذي اتجه إليه الأ صفهاني هو ذات التقسيم الذي اتجه إليه الغزالي في الحديث عن الفضـــائل والأخلاق الكبرى و ما يكتنفها من رذا ئل، ويتفرع عنها من أخلاق، غير أن الأصـــفهاني لم يســـهب كثيرا في الحد يث والتفريع كما اتجه الغزالي و قدم من شـــبكة تحليلية واضـــحة للأخلاق الكبرى وما يكتنفها من فضائل ورذائل وما يتفرع عنهما، ويو ضح الشكل الجدول أخلاق الشخصية عند الأصفهاني:

جدول5: *تصنيف الأ خلاق الكبرى عند الأ صفهاني*

الحكمة		العفة		الشجاعة		العدالة
رذيلة	رذيلة	رذيلة	رذيلة	رذيلة	رذيلة	
الخب	البله	الشره	خمود الشهوة	التهور	الجبن	لا رذائل على طرفيها

(1) الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص96.

د. محمد خالد السميري

المطلب الرابع: رؤية ابن حزم للأخلاق

ويشير ابن حزم إلى أن "أصول الفضائل كلها أربع، عنها تتركب كل فضيلة وهي: العدل، والفهم، والنجدة، والجود، وأصول الرذائل كلها أربعة، عنها تتركب كل رذيلة وهي أضداد -الفضائل-: وهي: الجور، والجهل، والجبن، والشح"[1]، أي الأخلاق كلها تنبعث من أربعة أصول وعنها تتفرع أخلاق الشخصية الإنسانية، وتكتنف كل فضيلة على حديها رذيلتان، إن غالت فيه وصلت إلى حد الرذيلة، وإن قصرت فيها وصلت إلى حد الرذيلة، وهي كما يأتي:

1- **الجود**: "بذل الفضل كله في وجوه البر، ومنع الفضل داخل في البخل، على قدر التقصير، وما وضع في غير هذه الوجوه فهو تبذير"[2].

(1) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص145.

(2) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص104.

2- **الشــجاعة**: "في بذل النفس للموت عن الدين، وعن الحريم، وعن الجار المضطهد وعن المستجير المظلوم، والتقصير عما ذكرنا جبن وخور، وبذلها في عرض دنيا تهور وحمق"[1].

3- **العفة**: "أن تغض بصــرك، وجميع جوارحك من الأجســام التي لا تحل لك، فما عدا هذا فهو عهر، وما نقص حتى يمسك عما أحل الله تعالى فهو ضعف وعجز"[2].

4- **العدل**: "أن تعطي من نفســك الواجب و تأخذه، و حد الجور ان تأخذه ولا تعطيه"[3]، ولا رذيلة على طرفي العدل؛ لأن العدل جامع لأم الفضـائل كلها كما ذهب إلى ذلك غير ابن حزم ممن ذكر الباحث من علماء التراث التربوي الإسلامي[4].

---

(1) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص105

(2) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص106.

(3) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص106.

(4) اشترك علماء التراث التربوي الإسلامي وهم: ابن قيم الجوزية والغزالي والأصفهاني وابن حزم في أن العدل أو العدالة فضيلة كبرى تعد أم الفضائل كلها، ولا يوجد رذيلة على طرفيها سواء غلا فيها الإنسان أو قصر، وإنما يقابل العدل الجور وهي رذيلة تضادها.

ويعتبر المقابل للفضائل على الدوام أربعة وهي الرذائل التي ذكرها، وتنشأ عنها أخلاق فرعية تتسم بها الشخصية الإنسانية، ويقسم ابن حزم الأخلاق المتولدة من هذه الفضائل أو الرذائل إلى ما يأتي:

أولا: أخلاق مفردة:

وهي الأخلاق التي تتركب من فضيلة واحدة أو رذيلة واحدة، ومثال ذلك سمة "الحلم فإنها نوع واحد من أنواع النجدة"[1]، أي النجدة تولدت منها سمة الحلم، فهي مفردة في بابها ولم تشترك معها فضيلة أخرى في إيجادها.

ثانيا: أخلاق مركبة تركيبا ثنائيا:

وهي الأخلاق التي تولدت من أصلين من أصول الفضيلة أو الرذيلة، وهي كما يأتي[2]:

1- **الأمانة والعفة**: نوعان من أنواع العدل والجود.

2- **النزاهة في النفس**: فضيلة تتركب من النجدة والجود.

(1) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص145.

(2) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص145-146.

د. محمد خالد السميري

3- **القناعة**: فضيلة مركبة من الجود والعدل.

4- **المداراة**: متركبة من الحلم والصبر.

5- **الصدق**: مركب من العدل والنجدة.

ثالثا: أخلاق مركبة تركيبا ثلاثيا:

وهي الأخلاق التي تولدت من اتحاد ثلاثة أصول من أصول الفضائل أو الرذائل، وهي كما يأتي ذكرها[1]:

1- **الوفاء**: مركب من العدل والجود والنجدة.

2- **الكذب**: مركب من الجور والجبن والجهل.

رابعا: أخلاق متسلسلة:

وهي الأخلاق التي كلما ظهرت تولدت منها أخلاق متسلسلة تأتي تبعا للأخلاق التي قبلها، ولو انعدمت الأولى لانعدمت كلها، ومثالها: "الحرص: متولد عن الطمع، والطمع متولد عن الحسد، والحسد متولد عن الرغبة، والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل"[2]، ولو انعدم الجور

(1) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص145-146.

(2) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص145.

د. محمد خالد السميري

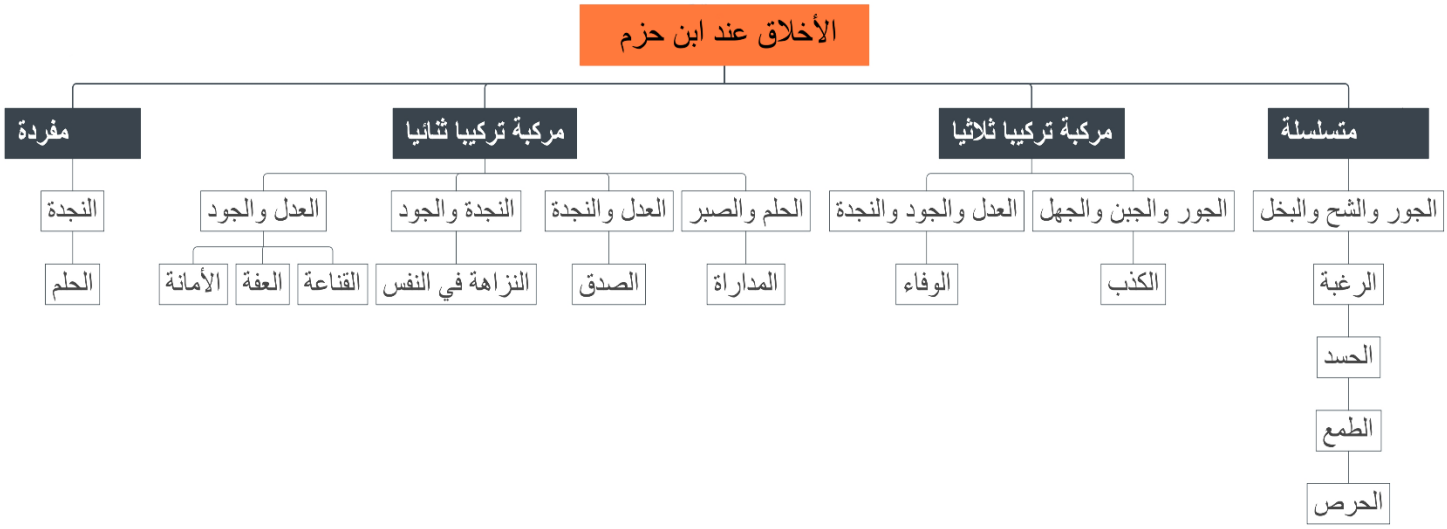
والجهل والشـح لما وجدت رذيلة الحرص وهي المترتبة بنظام تسـلسـلي على ما سبقها من رذائل، ويبين الجدول تصنيف أخلاق الشخصية عند ابن حزم:

جدول6: *الأ خلاق الكبرى عند ابن حزم*

الجود		العفة		الشجاعة		العدالة
رذيلة	رذيلة	رذيلة	رذيلة	رذيلة	رذيلة	
البخل	التبذير	الضعف والعجز	الشره	التهور	الجبن	لا رذائل على طرفيها

ويبين الشــكل الآتي الأخلاق عند ابن حزم وفق التصــنيف الهرمي ا لذي أورده:

الشكل5: *تصنيف الأ خلاق المركبة عند ابن حزم*



تم بحمد الله تعالى

المراجع:

ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية، بيروت، 1979م.

ابن الجوزي، تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر، دار الصحابة، طنطا، ط1، 1991م.

ابن الجوزي، ذم الهوى، د.ت.

ابن الجوزي، صيد الخاطر، دار القلم، دمشق، ط1، 2004م.

ابن القيم، الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1973م.

ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود، دار البيان، دمشق، ط1، 1971م.

ابن القيم، شفاء العليل، دار المعرفة، بيروت، 1978م.

ابن القيم، عدة الصابرين، دار ابن كثير، دمشق، ط3، 1989م.

ابن القيم، محمد، أحكام أهل الذمة، رمادي للنشر، الدمام، ط1، 1997م.

ابن القيم، محمد، التبيان في أقسام القرآن، دار المعرفة، بيروت.

ابن القيم، محمد، الروح، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن القيم، محمد، مفتاح دار السعادة، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفس، دار الآفاق، بيروت، ط2، 1979م.

ابن حزم، علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة.

ابن فارس، أحمد بن زكريا، مقاييس اللغة، دار الفكر، 1979م.

ابن القيم، المدارج، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1996م.

أحمد، سمير نعيم، الدراسة العلمية للسلوك الانحرافي، مكتبة سعيد، القاهرة، 1985م.

الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب، مكتبة المعارف، ط1، 2000م.

البيهقي، شعب الإيمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1410ه.

الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، دار السلام، القاهرة، 2007م.

الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1983م.

الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الأدب المفرد، دار الصديق، ط4، 1997م.

الألباني، ضعيف الترغيب، مكتبة المعارف، ط1، 2000م.

البخاري، محمد ابن اسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محمد الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.

بوذينة، عمر، والمري، راشد، مكونات الطبيعة الإنسانية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر.

الجرجاني، علي، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983م.

الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح ابن ماجه، مركز نور الإسلام.

الخطابي، معالم السنن، المطبعة العلمية- حلب، ط1، 1933م.

الديب، ابراهيم، 2011، القيم التأسيسية البناء الرباني المعاصر، ط1، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، المنصورة.

الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، المكتبة العصرية، بيروت، ط5، 1999م.

الترمذي، سنن الترمذي، مكتبة مصطفى البابي، مصر، ط2، 1975م.

رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1990م.

السجستاني، أبو داود، سنن أبي داود، تحقيق الأرناؤوط، دار الرسالة، بيروت، ط1، 2009م

د. محمد خالد السميري

السيد، عاطف، التربية الإسلامية أصولها ومنهجها، ص55.

الشريفين، عماد، ومطالقة، أحلام، أثر والوراثة والبيئة في بناء الشخصية الإنسانية، ص19.

الشـيباني، أحمد بن حنبل، مسـند أحمد، تحقيق الأرناؤوط، مؤسـسـة الرسـالة، ط1، 2001م، ج2، ص182، حديث رقم:803.

صالح، خولة علي، الإرشاد السلوكي في التصور الإسلامي، رسالة، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم التربية الإسلامية، 2011م.

الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع، المكتب الإسلامي.

الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح ابن حبان، دار ابن حزم، ط1، 2013م.

الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م

العاني، نزار، الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتب الأردن، 1998م.

الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.

الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1975م.

الفيروزآبادي، محمد، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط8، 2005م.

قنديل، أمين، أصول علم النفس، المطبعة المغربية، ط2، 1972م.

مسلم، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

مقداد يالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، دار الشروق، ط1، 1983م.

د. محمد خالد السميري

نجاتي، محمد عثمان، الدراسـات النفسـانية عند العلماء المسـلمين، دار الشـروق، ط1، 1993م.